د. محمود عكّام

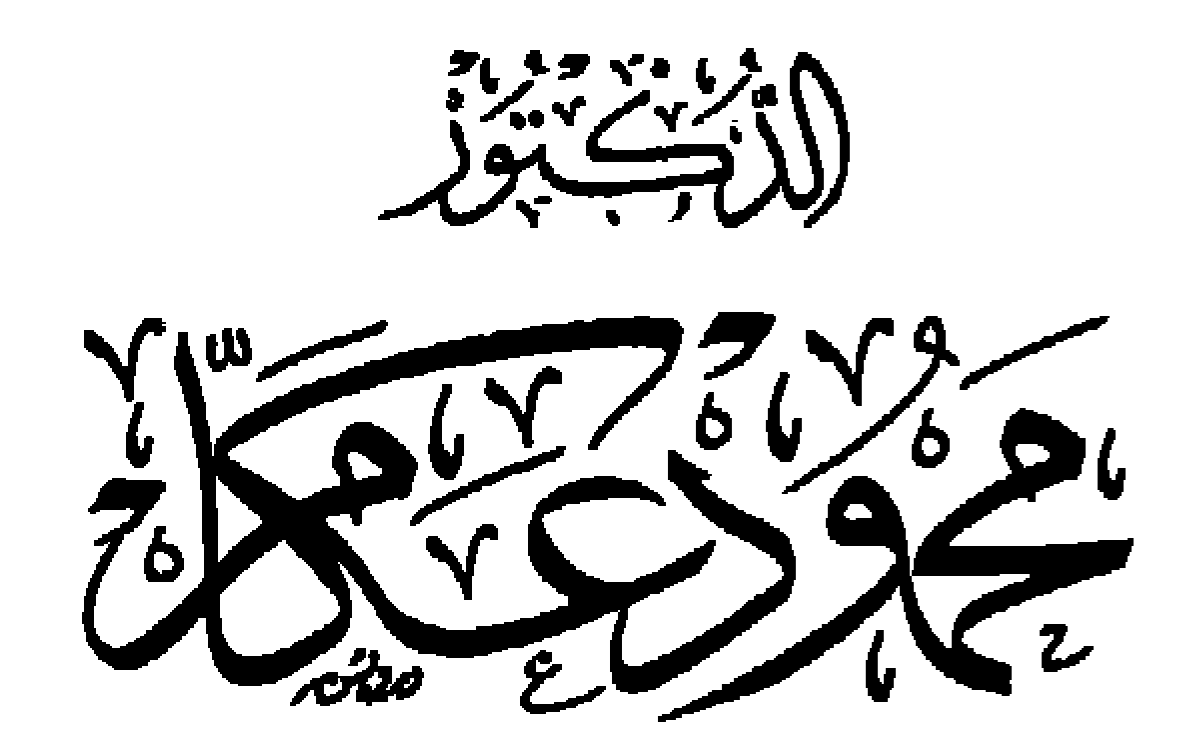
التطرّف والاعتدال

وقضايا مقاربة:

- السّلام والحرب
- المقاومة والإرهاب
- الأصوليّة والوسطيّة



التطرف و الاعتدال



التطرف والاعتدال

وقضايا مقاربة:

السلام والحرب والمقاومة والإرهاب
والأصولية والوسطية...





الكتاب رقم: /٨٩/.

العنوان: التطرف والاعتدال وقضايا مقاربة.

المؤلف: الدكتور محمود علي عكام.

الطبعة الأولى: شعبان ١٤٢٨ هـ/ آب ٢٠٠٧ م.

فُصِّلَتْ للدِّراسَات والتَّرْجمَة والنَّشْر

سورية. حلب. ص.ب: ٨٢٦٠ هاتف: ٤٤٦٠٢٩٨- ٢١١٧٠٢٦. فاكس: ٢١١٢٩٨٩

www.fusselat.com e-mail:fusselat@akkam.org

SYR. Aleppo. P.O Box: 8260

Tel: +963-21-2117026/4460298 Fax: +963-21-2112989

مخطط الكتاب

- مقدمة.

- مقامات فكرية في مفهوم الحرية.

- الأصولية الإسلامية: نشأةً وملامحَ وتأثيراً على العيش المشترك.

- الحركة الإسلامية السياسية.

- الإسلام بين التطرف والاعتدال.

- تعليقات ومصارحات ومناشدات.

- نداءٌ للأمة في الأيام الصعبة.

- النصر قادمٌ، ولكن إلى مَن ؟

- يا عرب أجيبونا وأغيثونا، وإلا ...

- لا للتفجير... نعم للتعمير.

- تحديات تواجهنا.

- قاسَمونا فأعطونا الحربَ واضطرابها وأخذوا السَّلامَ واستقرارَه؛ فيا غباءَنا إن رضينا !

- الإسلام والحرب

- لا للحرب المفتوحة، ولكن... !

- عدو الإنسان.

- بين الإرهاب المرفوض والإرهاب المفروض.

- وبعد أن وضعت الحر ب أوزارها. فماذا بعد ؟!

- المقاومة: إلى متى ؟!

- لبنان يا لبنان.

- اللهمَّ أمِّنا وآمنَّا في أوطاننا.

- الوحدةَ الوحدة قبل فوات الأوان وتلقِّي اللعنة.

- دمعة من أجل الوطن.

- أحلام متكسرة.

- وفي النهاية.



مقدمة

وإذ أمسك القلمَ لأخطَّ مقدمةً أو فاتحةً لكتاب يحكي حكايةَ التطرف والاعتدال وقضايا مقاربة أشعرُ بمرارة وأسىً وشيءٍ من التمنِّي لو أن الكتاب كان له موضوع آخر يتناول فيما يتناول التقدمَّ والتطور ودور الإسلام العظيم في ذلك؛ أو يبحث في ريادة العالم الإسلامي الراهن في القضية العلمية الفلانية أو الأمر الإنساني الفلاني، وهكذا ...

ولكنْ هكذا شئنا نحن الذين ظلمنا أنفسَنا وظلمنا دينَنا وظلمنا تاريخَنا وظلمنا حاضرَنا، فحسبُنا اللّهُ ونِعم الوكيل !

وعلى كلٍّ فيا قارئي العزيز - عربياً كنت أم أعجمياً، مسلماً متديِّناً كنت أم مسلماً ضعيفَ التديُّن... - اسمحْ لي أن أضع أمام ناظريك هذه الكلمات، وإن شئتَ سمِّها مقالات أو محاضرات، لتكونَ لفتةً نحو الوعي المستقرِّ في دواخلنا، والذي لم نعُد نلامسه بقراءة أو بكتابة، فماذا عسى ذاك الوعي يقول بعد هذا الالتفات منَّا إليه ؟!

ولعلَّ ذاك القولَ المنبثق عن وعيك ووعيي هو ما آبغي الاطلاع عليه والوصولَ إليه من خلال ما كتبتُ وما سجَّلتُ في هذا الكرَّاس الذي بين يديك.

لك أيُّها القارئ المستجيب شكري وتقديري وإكباري.

وأنت أيُّها القارئ المستعصي لك دعائي في أن نعود جميعاً إلى ساحِ اعتبار العقل الذي أُكرمنا به.

وإلى أن نلتقي في هاتيك السَّاحة أرفع يدي إلى العليِّ القدير سائلاً إيَّاه الردَّ الجميل لكلِّ المسلمين إلى الدِّين العظيم والإنسانية الفطريَّة الخيِّرة.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الدكتور

محمود عكام

حلب، رجب ١٤٢٨، آب ٢٠٠٧

مقامات فكرية في مفهوم الحرية

«الحرية: شعور بالتمرد على ما ينافي الفطرة، يعقبه بحثٌ جادٌ عن المناسب، ومن ثم تأتي الممارسة الجريئة لهذا الذي انتهى إليه البحث».

- المقام الأول:

الحديث عن الحرية في الإسلام حديثٌ عن مفهوم حَرِج، وإن شئتَ قل: هو حديث عن معنى دقيق، ليس بينه وبين مقابله «العبودية» إلا خط حادّ وفاصل، يتهيَّب الباحث من ملامسته.

فالحرية في مواجهة العبودية التي يقوم عليها الدين الإسلامي برمَّته، فهل يستطيع الباحث فيها تحديدَ أُطرها وتبيان مساراتها، حتى لا تؤثر على ما يجب أن يتوفر في مشروع المسلم من عبودية ؟!

ولعل الحديث عنها - أي عن الحرية - كالحديث عن الغنى في الإسلام، في مقابل الفقر الذي نستطيع الحديث عنه كيفما اتفق، ما دمنا قد وُصفنا به جملةً وتفصيلاً من قبل الله:

﴿ يا أيُّها الناس أنتمُ الفقراء إلى الله والله هو الغنيُّ الحميد ﴾ فاطر/١٥ .

واسحب الأمر على القوة والعظمة، في مقابل الضعف والتواضع والحقارة، فهل يستطيع الإنسان وصف نفسه بالقوة والعظمة بذات

السرعة والأريحية التي يستجلب لذاته الفقر والتواضع ؟

وقِس على ما قد سلف حديثاً عن الجلال والوقار والرفعة والمجد في مقابل حديثٍ عن متقابلاتها.

المقام الثاني:

الحرية التي نريد تفصيلَ مفهومها ليست بتلك التي تعني أن يفعل الإنسان ما يريد، بل هي احترام الإنسان لفعل إنسان آخر مهما كان، ولقوله كذلك، حتى وإن لم يَرُق ذاك الفعل أو هذا القول للإنسان المحترِم، ونقصد بالاحترام الابتعادَ عن التسفيه والردِّ بالقوة والسبِّ والشتم واللعن والطعن والإبعاد. فـ (**ليس المؤمن بالطعَّان ولا باللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء**) كما ورد عن محمد رسول الله ﷺ (١).

ويعبارة أخرى:

لا نريد بالحرية المنشودة حريتك أو حريتي، ولكننا ننادي بحرية الآخر إذ يكون معنا أو نكون معه... استمعْ إليه وأنصت، واجعله يعبِّر، ويتكلم وينطق ويتحدث، وإياك أن تصادره أو تمنعه أو تُسكته، ما دام في فعله أو في قوله لا يتجاوز ذاته، ولا يتعدى على سواه، ولا يتناول مَنْ عداه.

فمن فعل ذلك فقد باء بفشل ذريع عن أن يكون في درب الحرية

(١) أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك.

أو في مسارها:

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ البقرة: ١٩٤.

- المقام الثالث:

الحرية عنوانُ جماعة ومجتمع وأمة قبل أن تكون عنوان فرد أو مجموعة، فنحن ننشد الجماعةَ الحرَّة، والمجتمعَ الحرَّ، والأمة الحرَّة، والشعبَ الحرَّ، وبعد ذلك فلا علينا إن قيَّدنا الفرد لمصلحة حرية الجماعة والمجتمع والأمة والشعب.

والحرية في المناخ الجماعي والاجتماعي: حقوق مصونة وواجبات مرعية.

وأهم هذه الحقوق: حق الحياة، وحق النماء، وحق التعبير والتفكير.

و لا أريد عرضَ أدلة تثبت رعاية هذه الحقوق في الإسلام عندما يخيِّم إسلامُ القرآن على مجتمع ما، فيكون موجِّهاً ملتزَماً به من قبل هذا المجتمع.

- المقام الرابع:

الحرية مطلب لا يُمنح من الإنسان إلى الإنسان، ولكنه مطلب يحققه الإنسان بذاته، وعبر جهاد وكفاح:

﴿ والذين جاهدوا فينا لنَهدينَّهم سُبُلنا وإنَّ الله لمعَ المحسنين ﴾ العنكبوت/ ٦٩.

ولا أعني بالجهاد قتلاً مسلحاً أو عراكاً مادياً، لكنني أقصد به سعياً حثيثاً بالكلمة الجادة، وتضحيةً بالعبودية المرفوضة للوصول إلى الحرية، أو تضحية بحياة لا حرية فيها للوصول إلى حرية تَنعم بها أمة المضحي أو شعبه أو مجتمعه.

فإمَّا حياة تسرُّ الصديق وإمَّا ممات يغيظ العدى

وها نحن أولاء في ذكرى عاشوراء، التي علمنا فيها الإمام الحسين بن علي ﵁ كيف ينتصر الدم على السيف، وقد خاطبتُه مرة فقلت:

(سيدي أبا عبد الله.. لقد علَّمتَ الناس من خلال ثورتك كيف يموتون، لأن الموت فنٌّ كالحياة، ومَن لم يختر الشهادةَ النبيلة فسيختاره الموتُ الوضيع. علَّمت الناس كيف تُعتنق المبادئ، وكيف تُحرَس، وكيف تُقدَّس الحرية، وكيف يُدافع عنها، فقد قلتَ: «يزيد رجل فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرَّمة ومعلنٌ بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله» ! وقد قلت أيضاً: «هيهات منّا الذِّلة. يأبى اللهُ ذلك ورسوله والمؤمنون، وحُجور طابت وبطون طهرت، وأنوف حميَّة، ونفوسٌ أبيَّة !

ألا ترون أنَّ الحق لا يُعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه ؟! فلا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً).

وصدق العلايلي حين قال:

(آلهة الأساطير تحتاج إلى نبي يمحوها حتى يردَّها إلى خيال طائش في حدود الخرافة، والإنسان المستأله يحتاج إلى مصلح

يمحوه حتى يردَّه إلى طبيعته في حدود الحقيقة) [1].

- المقام الخامس:

تتحمل دلالات القرآن الكريم كلَّ معنىً للحرية إنسانيٍّ جميل، ولن تقف هذه الدلالات أمام امتدادات طيبة لتفكير الإنسان في قيمة إيجابية كالحرية.

وحدثوني - إن وجدتم - عن تناقض أو مناقض أو معاكس لهذا الذي أقول، فإن ذكرتم «الجهاد القتالي» الذي دعا إليه القرآن فاسمعوا مني فهماً لمعانيه ضمن السياقات الدلالية في هذا الكتاب الكريم:

فالجهاد شُرع إذ شُرع من أجل ردٍّ الظلم الواقع:

﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله﴾ الحج/٣٩-٤٠.

فهو إذن دفاع عن الحرية، وهو في استمراره أداةٌ لرد الظالم ودحره وإزاحته من طريقٍ كان يريد - وهو يسير فيها - استعباداً واستبداداً، لذا يمنع عن الناس طعاماً لأجسامهم يأتيهم، أو أفكاراً قابلة للتداول الإنساني تُعرض عليهم.

والجهاد في النهاية دفاع مشروع عن كلمة يُدعى إليها، وحوار جادّ يُتنادى إليه:

(١) عبد الله العلايلي: تاريخ الحسين، ص ٨.

﴿ فقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَ الله لا يحبُ المعتدين ﴾ البقرة/ ١٩٠ .

- المقام السادس:

إن استمرار الإسلام ديناً له أنصاره ومعتقوه دليلٌ على مناداته بالحرية المنشودة في عالم الإنسان، ولولا ذلك لسقط منذ أمد بعيد ، لأن الحرية مطلب إنساني فطري، يَجِدُّ الإنسان في البحث عنه، والسعي إليه أنى كان.

ولن يقبل الإنسان بدين - حتى ولو شكلاً أو على سبيل النفاق - هذه المدة الطويلة إذا كان ذاك الدِّين لا يؤمِّن له - على الأقل - المناداة بهذا المطلب.

وما كان الإسلام في يوم من الأيام لينقص من قدر الحرية قيمةً إنسانية عظيمة، ويبقى الإنسان الواعي ينتمي إليه ويضحّي من أجله بالغالي والنفيس.

قد يخطئ بعض الدعاة، ولكن الخطأ في الفهم مردودٌ عليهم، ولا يتحمل الإسلام من خلال نصوصه وزر أخطائهم، فريك الحق لا يشوبه باطل الناس لأنه خلَقهم !

- المقام السابع:

يبتدئ بسؤال هو:

مَن يُشعر مَن بالقدرة على الاختيار؛ إذا كانت الحرية اختياراً ؟

والجواب:

لا شك في أن القوي هو من يُشعر الطرف الآخر المقابل له بأنه قادر على ذاك الاختيار.

فالدولة مثلاً هي من تُشعر الفرد بأنه حرٌّ وقادر على فعل الممكنات، والأب هو من يُشعر ولده بالحرية والقدرة على الاختيار أيضاً.

وهنا تحضرني قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال - لمن قال له: اتق الله - : «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

فالخليفة عمر رضي الله عنه هنا أشعرَ من أمامه بقدرته على الاختيار، فاختار «اتق الله»، ولم يختر المجاملة، وأقرّه عمر على هذا الاختيار.

- المقام الثامن:

إن المعايير التي تحكم المجتمع الصالح - في النهاية - ثلاثة، هي: الحرية والحق والعدل.

أ - فالحرية ما ذكرنا.

ب - والحقُّ هو ما لك وما لغيرك، أو ما لك على الآخر وما للآخر عليك.

فتعرّفْ أيها الإنسان على مصدر معرفي موثوق يعرّفك بها. وأنصحك بالعود في هذا الشأن إلى ما جاء عن ربك الذي يعلم مَن خلقَ وما خلقَ.

ج - وأما العدل فهو ممارسة أمينة ووفية للحق الذي عرفتَ.

والناس حيال الحقوق - معرفةً وتنفيذاً - أصناف: غافل وعادل وفاضل.

فالغافل من يعرف ما له ويتجاهل الذي عليه.

والعادل من يعرف ما له وما عليه.

والفاضل من يعرف ما عليه ويتسامح في الذي له.

- في ختام المقامات:

تعريف وتحديد لهذا المفهوم ذي الدراسات الأكثر في عالم المفاهيم والقيم، فليسمح القارئ الواعي بعرض ما وصلتُ إليه من تعريف وتحديد لهذا المفهوم وتلك القيمة، وإذ أقدِّم هذا نهاية المطاف فمن أجل إبقاء باب النقاش مفتوحاً ومتصلاً بما يمكن أن يأتي من قرائح أخرى، وإني على شبه يقين أننا سنتفق في هذا الشأن كثيراً، وسنختلف قليلاً قليلاً، ولكننا في الاتفاق والاختلاف سعداء، لأننا وصلنا إلى ما صولنا إليه أحراراً، وسنتابع الطريق دائماً بتوفيق الله أحراراً.

فالحرية - إذن - في رأيي:

شعور بالتمرد على ما ينافي الفطرة، يعقبه بحثٌ جادٌّ عن المناسب، ومن ثم تأتي الممارسة الجريئة لهذا الذي انتهى إليه البحث.

وليسمح لي القارئ أن أقدم مثالاً موضّحاً لما عرضت، وسيكون المثال مُستلاً من القرآن الكريم، وأما بطله فنبيٌّ متفق على نبوته

مِن قبل كل الديانات السماوية، هو إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام، فقد قال متمرداً: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ثم بحث عن إله حق، فرأى القمر فقال: هذا ربي، ثم عدل. فرأى الشمس فقال: هذا ربي، لأنها أكبر، ثم عدل. وقال: سيهديني ربي إلى الحق ما دمت باحثاً جاداً في ذلك، وقد تمّت الهداية وقام بالممارسة فقال: إني وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، وواجه بعد ذلك التمردِ المستعبدَ بغير حق، وحطّم الأصنام وكسرها، وضحّى بنفسه وهو يستمع التهديد الجاد من قبل أعداء الحرية، فقالوا: حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. وبرزت عناية الراضي عن السعاة الصادقين إلى الحرية، فقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين [٢].

وبناءً على ذلك:

فلا تُكرهنّ أيها الحرُّ غيرك على نتائجك، بل علّمه برفق، وادْعُه بأناة وحلم حتى يسلك الطريق التي سلكت، ولستَ فيما وراء ذلك عليهم بمسيطر:

﴿قُل هَذه سَبيلي أدعوا إلى الله على بَصيرة أنا ومَن اتّبعَني﴾ يوسف/١٠٨.

---

(٢) ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفَل قال لا أحبُّ الآفلين * فلما رآى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ الأنعام/٧٤-٧٩.

الأصولية الإسلامية

نشأةً وملامحَ وتأثيراً على العيش المشترك

«... عنوان الحل: عقل منفتح متفتح يدور بأمانة ووفاء في فلك النص الذي هو القرآن، وشرحه الذي هو السُنَّة».

١- تمهيد وتعريف.

لاشك في أن مصطلح الأصولية - باعتباره مفردة من مفردات القاموس السياسي - مصطلح حديث. وربما كان الترجمة للكلمة والمصطلح الفرنسي fondamentalism، وسنسعى هنا إلى تجلية المفهوم وتبيان ملامح تجلياته الحركية، ومن ثم سنأتي على ذكر انعكاساته على العيش المشترك المنشود، وفي النهاية سنقدم رؤية لمقومات تعايش إنساني مشترك تحت عنوان فرعي (أنا والآخر: وهم التنافر وضرورة التعايش).

وإذ اجتهدنا في بسط المفهوم قلنا:

الأصولية الإسلامية:

هي الجماعات الإسلامية التي ترى في الإسلام منطلقاً لعمل سياسي يهدف إلى تغيير الأوضاع جذرياً في البلدان الإسلامية

لصالح تطبيق الشريعة الإسلامية، على سبيل الإجمال المعفَى كسلاً من التفصيل، بآلية الجهاد غير واضحة المعالم تنفيذاً وتحقيقاً وغاية.

٢- النشأة والدوافع.

هناك - بعد التقصي - ثلاث أطروحات تتعلق بتفسير نشوء ظاهرة الأصولية وتعليلها.

- الأطروحة الأولى:

يقول أربابها: إن الأصولية الإسلامية ظاهرة رجعية تمثل مرحلة غريبة في مجتمع رأسمالي مريض، مجتمع ركد بسبب الأزمة الهيكلية للرأسمالية، فَفَشَلُ الإقطاعية وتواصل وجود الأشكال البدائية للمجتمع الإنساني يخلقان التربة الخصبة للأصولية الإسلامية، وعندما تبدأ الطبقة العاملة في التحرك، فإن هذه الأصولية تدخل متحف التاريخ.

وقد تبنى هذه الوجهة الماركسيون الأصوليون، الذين يرون أيضاً أن الأصوليات الإسلامية جميعها مزروعة ومستنبتة بأيدي الإمبريالية ووكالات المخابرات الأمريكية والغربية.

- الأطروحة الثانية:

تقول: إن ظاهرة الأصولية الإسلامية تعود إلى جذور تاريخية، وهي امتداد آلي لوجود قديم موروث، وقد مثَّل هذا الرأي المفكر

محمد أركون خير تمثيل حين قال: «الأصولية الإسلامية وليدة القرن الثالث عشر الميلادي، حيث دخل المسلمون في زمن السلاجقة عصر التكرار والتقليد والاجترار وإقفال باب الاجتهاد، العصر الذي قُضي فيه على التعددية داخل الفكر الإسلامي، وتكرست فيه ظاهرة معاداة الاتجاه الفلسفي والعقلاني»، وبناء عليه فالأصولية الإسلامية هي اطراد واستمرار لحالة من الانغلاق والانحطاط، وقعنا فيها ولمّا نخرج منها.

- *الأطروحة الثالثة:*

وهي وجهة نظر علم الاجتماع السياسي، حيث تقول: إن الأصولية الإسلامية ظهرت إذ انتشرت ونمت ظاهرة الاستبداد والقمع والإرهاب في أغلب البلدان العربية والإسلامية، ومن خلال محاصرة الظاهرة الإسلامية والقوى الممثلة لها لكي تظل خارج العملية السياسية، ولكي تبقى في عداد القوى المحجوبة عن الشرعية.

هذه الحالة من النفي والمحاصرة والإصرار من طرف الأنظمة السياسية العربية والإسلامية على توظيف الدين الإسلامي توظيفاً «كاريكاتورياً» لتعزيز شرعيتها، ومع مباشرة الإرهاب والاضطهاد لكل رأي معارض، هو الذي دفع ويدفع بعض التيارات الإسلامية إلى ارتداء جلباب «الأصولية»، وبسبب من هذا الارتداء تلجأ الدول والحكام إلى تجريم الظاهرة الإسلامية بكليتها، والقوى الممثلة

لها، وتوكيل الأجهزة الأمنية بمعالجتها على طريقتها، على اعتبار أنها ظاهرة انحرافية إجرامية أمنية، ويدخل بذلك المجتمع السياسي العربي الإسلامي دوامة التقاطب العنيف والتماهي مع الفعل المتطرف وردة فعله.

ولعلنا نجمل الأطروحات الثلاث لنجعلها جميعاً مُتبنَّاة في دراستنا، لا نهمل واحدة منها، ولا نؤكد على أخرى على أنها الأهم، بل كلها ساهمت وتساهم في النشأة والتطور، ولو أن مَنْ سوى الأصوليين أُعْطوا الفرصة للتعبير والتغيير من قبل رجال السلطة في الدول العربية والإسلامية ودُعموا، ولم يُفرَّق بينهم وبين أفراد الأحزاب الحاكمة في البلاد لما حدث ما حدث.

ولو أن علماء الشريعة من جهتهم لم يغلقوا باب الاجتهاد ولم يعطلوا آليات الاستنباط عبر قرون وقرون، لما صار ما صار، لكنهم جمدوا على قول دون قول، وقيدوا مَن معهم بسلوك محتمل الانبثاق عن النص دون سلوك، فباؤوا بفتنة وفوضى عنوانها الحرفية والجمود والتعادي والصدود، واعتبار كل طرف نفسَه الممثلَ الأوحد لدين الله القويم ... وهكذا.

والمهم هنا أننا لا نريد بسط الحل، بل مهمتنا رصدٌ عامٌ وتوصيفٌ شامل، وربما ساهم الرصد والتوصيف في التحريض على إيجاد حل ودواء يخلِّصنا من مرضنا وآهاتنا، وليسمح لي قارئي إن استعجلت وتعجلت فذكرت ههنا عنوان الحل، وهو:

«عقل منفتح متفتح يدور بأمانة ووفاء في فلك النص الذي هو

القرآن، وشرحه الذي هو السنَّة».

٣ - الأصولية الإسلامية: ملامح عامة وتأثيرها على العيش المشترك.

وقد حددناها في خمسة ملامح وهي:

١ - الحركات الأصولية الإسلامية متفقة على ضرورة حكم الإسلام المجتمعات كافَّة عن طريق دولة تتَّسم وتتصف به، والمجتمعات تتحول بالحكم المذكور إلى مجتمع واحد تحكمه دولة واحدة، وتتحول الأمم إلى أمة واحدة تذوب فيها كل الفروق العرقية والجغرافية، وإلى أن يتحقق هذا الحلم الكبير فلتكن البداية دولة جغرافية محددة، تشكل النواة لتلك الدولة العالمية الكبيرة المنشودة.

وقد اختارت كل حركة دولتها التي نشأت فيها، فالإخوان المسلمون الناشؤون في مصر اختاروا مصر، وفرعهم السوري اختار سورية، والجماعة الاسلامية التي قامت ونشأت في الهند سعت إلى إقامة دولة النواة في الهند، وهكذا.

أما الشيعة في إيران فقد كانوا على موعد مع دولة إيران ذاتها هدفاً أولياً واستراتيجياً، أي لم يكونوا مثاليين إلى حد جمع العالم كله تحت راية دولة الخلافة كما يقول السُّنيون، ولهذا نجح الشيعة في إيران ونجحت الحركة الشيعية الثورية، واستولت على السلطة والدولة بثورة فعلية، وتماهت مع الدولة الإيرانية التي جعلت منها أداة لاستراتيجية القوة الاقليمية التي سارت في فلكها.

٢ - وأما الملمح الثاني فالعودة إلى الكتاب والسُّنة في شؤون الحياة كلها، ولو افتُقد التصور التفصيلي من ذهن الدعاة في هذه الحركات، والمهم أن يواجهوا بهذا الشعار تطلعاتٍ علمانية عبر حركات وأحزاب نشأت وتنشأ في ذات الدول المستهدفة إسلامياً من قبل الحركات الأصولية، كالأحزاب القومية واليسارية وسواها.

٣ - المواجهة المسلحة المتسارعة للتعبير عن الجهاد فريضة لا تقبل الفسخ ولا النسخ، وإذا لم يكن الجهاد هنا فأين إذن يكون؟ كما يقولون.

ولهذا شرع مفكرو هذه الحركات بكتابة المؤلفات عن هذه الفريضة، وقد كتبوا فعلاً، ولعلنا لا نبالغ حين نقول: إن المصنفات في موضوع الجهاد تجاوزت من حيث العدد المصنفات التي تتحدث عن الإسلام عامة.

وأما الشيعة فقد شغلهم موضوع «الإمامة» و «ولاية الفقيه» وضرورتهما.

٤ - الملمح الرابع هو المفاصلة بين المسلم وغير المسلم، أو بين الإسلامي وغير الإسلامي، والمفاصلة تكون في كل الميادين؛ فلا استخدام لمصطلحات استخدمت في غير حضن الإسلام حتى ولو كانت مضامين هذه المصطلحات جيدة، لأن المقاطعة الجادَّة أهم وأولى من المضامين والبحث عنها.

كما أن التميز في الخطة واللغة وحتى اللباس أمر جدٌّ هام، وقد أسعفت ظواهر بعض الآيات القرآنية هذا التوجه، كقوله تعالى:

﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسولَه﴾ الحشر: ٢٢.

وقوله تعالى:

﴿فمَن يكفرْ بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسَك بالعُروة الوثقى لا انفصامَ لها﴾ البقرة: ٢٥٦.

والطاغوت: ما سوى الإسلام، من علمانية ويسارية وديمقراطية وسواها...

٥- التجليات المتنوعة التي تبدَّت بها الحركات الأصولية، وظهرت من خلالها داعية إليها وإلى تحقيقها.

وهذه التجليات المتعددة شكَّلت لدى كل حركة الأمرَ الأهم الواجب تحقيقه أولاً، فالإخوان المسلمون نادوا بالحكم لله وضرورة الاستيلاء على الدولة لتحقيق شرع الله.

والسلفيون المتشددون دعوا إلى تصحيح العقيدة كحالة إسعافية مستعجلة، إذ لو فسدت العقيدة لفسد المسلم، والعكس بالعكس، ولا يمكن أن يحكم الدولةَ فاسدُ العقيدة.

وأما «حزب التحرير» فقالوا بالخلافة وضرورتها، وهذا واجب عيني على كل مسلم لمواجهة الفعلة المشؤومة التي نفذها مصطفى

كمال أتاتورك بإنهائه الخلافة وتقويض أركانها واستبدال العلمانية «الوقحة» - على حد تعبير حزب التحرير - بها، أي بالخلافة.

ولا بد من أن نذكر أن الشيعة لم تكن لتُعتبر في نظر كثير من الحركات الأصولية الإسلامية السُّنية تجلياً إسلامياً حركياً مقبولاً، وإنما التعامل معهم يتم على اعتبارهم أهون الشَّرين، مقارنةً مع اليسارية والقومية والعلمانية، فإذا ما استتبَّ الأمرُ صُفِّيت الحسابات معهم بأسلوب أو بآخر.

حين نذكر هذه الملامح يأتي سؤال مفاده:

هل ثمة أثر سلبي لهذه الأصولية على عيش مشترك منشود، ووحدة وطنية مطلوبة بين المسلمين وغير المسلمين، ولا سيما منهم المسيحيون ؟

والجواب في طيٍّ ما ذكرنا، فإن نشرناه وأظهرناه قلنا :

إذا كانت الأصولية - وهنا نطلقها فلا نقيدها بالإسلامية - تقوم على التفرد في الحكم والسلطة، وتسعى بكل قوتها إلى ذلك فهي متعصبة، وعنيفة وعنصرية وإرهابية [1].

(١) عرّفت الإرهاب والتعصب والعنف والعنصرية في ورقة قدمتها لمؤتمر علماء الدين الإسلامي والمسيحي الذي انعقد في روما بدعوة من منظمة سانت ايجيديوا الكاثوليكية الشهر العاشر ٢٠٠١:

فالإرهاب: ممارسة اعتداء أو تهديد على آمن غير ظالم. والتعصب: اجتماع قوة على غير الحق. والعنصرية: اكتفاء فئة بنفسها لتكون وارثة الأرض وقيوميتها دون غيرها بغير وجه عدل. والعنف: تسرع في اختيار السلاح لمواجهة المخالف.

وذكرت في نفس الرسالة عبارات أرددها دائماً وقد غدت بمثابة شعار لي منها: «لسنا ضد أحد ولكننا لا نسمح لأحد أن يكون ضدنا»، ومنها «الحضارة لا تقوم على شتم الحضارات ولكنها تقوم على تحمّل شتم أشباه الحضارات».

ومَن كانت هذه صفاته فهيهات أن يقبل بعيش مشترك متكافئ في الفُرص مع سواه ومخالفه، حتى ولو كان يدين بدينه ولكنه لا يقول بفكرته التي حكمَته وعنونته، أي لا ينتسب انتساباً جاداً ورسمياً إلى الحركة الأصولية الفلانية، فلا مهادنة مع من دان بغير دين الإسلام، بالنسبة للأصولية الإسلامية.

ولا مهادنة أيضاً مع من لم يقرّ هذه الفئة أو تلك الجماعة الأصولية على كل أفكارها وسائر برنامجها.

ويا ويل من دعا إلى تعايش أبناء وطنه ووحدة بين المختلفين ديناً أو مذهباً أو حتى رأياً، فهو مارق كافر مهدور الدم والعرض، مدمِّرٌ للعقيدة مخرِّب للشريعة.

ونغتنم المقولة هنا لنذكر فئة تقابل الأصولية، وقد أسميتها «التمييعية»، فهي التي تنادي بالعيش المشترك شعاراً مجاملاً دون أسس، وبالوحدة الوطنية كلاماً عاماً دون مرتكزات محددة.

وهذا يعني أننا بحاجة إلى من يؤصل لعيش مشترك مستمداً الأسسَ والقواعد من نصوص الدِّين الذي يدين به، ومن نظام المبدأ الذي يتبناه، ومن منطلقات الحزب الذي ينتمي إليه، وهكذا...

ولذا قمت بكتابة فقرة مفصلة في هذا الشأن عنونتها بـ «أنا والآخر: وهم التنافر وضرورة التعايش»، عددتها بمثابة ورقة عمل للقاءات تتم من أجل العيش المشترك والحوار والوحدة الوطنية، وعلى كل من يهتم بهذا الشأن أن يدلي بدلوه، ونسأل الله لأصحاب الخير ونيَّة الخير للإنسان التوفيق، ولسواهم الإصلاح، وإلا الانزياح

عن هذا العالم الذي اضطرب وقلق بوجودهم.

٤ - أنا والآخر: وهم التنافر وضرورة التعايش.

١ - مقدمة:

مَنْ المعترِف ومن المعترَف به، مَنْ سار في خط الاعتراف بالآخر انطلق من الاعتراف بنفسه، ومن رفض الاعتراف بالآخر، انطلق من رفضه نفسَه، فأنا المعترِف تارة، والمعترَف به تارة أخرى، وأنتَ المعترِف تارة، والمعترَف به تارة أخرى.

وكلانا نتناوب ونتداول؛ فلمَ أنا «أنا» على الدوام، ولم أنتَ «الآخر» على الدوام ؟

ولمَ أنتَ أنتَ باستمرار، ولمَ أنا «الآخر» أبداً ؟

ولنعد إلى البداية:

لقد سبقني في الوجود كثيرٌ من الناس فكنت بالنسبة إليهم «آخر» متأخراً، وسبقت كثيرين فكانوا بالنسبة إليَّ «آخرين» متأخرين، وهكذا تتتابع السلسلة.

فإن تحدثنا عمّا سوى «الوجود» فتطرقنا إلى «الدِّين» فقبلي كثيرون يدينون بنفس الدِّين الذي أدين، فأنا معهم «آخرٌ» متأخر، وبعدي كثيرون فهم معي «آخرون» متأخرون.

وإن عدلنا عن الوجود والدِّين فبحثنا في «القوة والمنعة»، فالمعادلة في التناوب بين «أنا والآخر» ذاتُها، فمن هم أقوى مني كُثُرٌ، وأنا «آخر» معهم، ومن هم أضعف مني كُثُر وهم معي «آخرون».

حتى وإن تناولنا اعتبارات أخرى وركّبنا عليها معادلاتنا المحورية السالفة فالنتيجة واحدة. فتعالَ يا «أنا» ويا «آخر» نتناصف ونعتدل، وليأخذ كلٌّ منّا على سبيل التناوب تارة ساحة «الأنا»، وتارة أخرى ساحة «الآخر»، فسنكتشف في النهاية أنّ القضية لعبة مخترعة لاستهلاكنا مجّاناً، ولاستثمارنا من دون مقابل، بل ولتحويلنا إلى «سفسطائيين» نعيش ونلهو بالحروف الحادة الجارحة، وكان المأمول أن نعيش لنرقى بالحروف الجادة الجامعة، فنلتقي على «ألف» الأمل، و«باء» البهاء و«حاء» الحياء و«جيم» الجماعة وهكذا.. بدلاً من أن تضيعنا «ألف» الأنانية، و«باء» البطر، و«حاء» الحنق و«جيم» الجهالة والجهل وهكذا..

ولنعد إلى الشرق الأوسط الذي لا يختلف في رأيي عن الشرق الأدنى، ولا عن الشرق الأقصى، ولا عن الغرب المقابل، في شيء مما يخص المعادلة التي سجّلناها آنفاً.

بل على الشرق الأوسط أن يكون أنموذجاً يحتذى في تطبيق العدل والإنصاف ومبادئ الخير والحوار وثقافة التعايش الآمن المسالم، لأنّ هذا الشرق هو مهدُ الديانات السماوية، ومنبع الحضارات الإنسانية الجادة، ومنه انطلقت معالمُ إنسانيّةٍ قويمة واعية.

نعم على الشرق الأوسط أن يغدو ملاذاً لمن أراد الأمان وحقلاً ميدانياً لمن أراد دراسة السلام واقعاً وفعلاً.

ودعونا من دين يفرّق ولا يجمع، ومن حضارة تنفّر ولا تؤلف،

ومن مبدأ يشرّد ويهجّر، ولا يؤمّن ولا يطمئن.

ولا تحتجوا بإسرائيل المزروعة فينا زوراً وبهتاناً، فإنها امتحان ومحكٌّ لنا، وليست مشجباً لنعلّق عليه تخلفَنا وتفرُّقَنا وتنابزنا بالألقاب.

ولو أننا - مسلمين ومسيحيين، قوميين وعلمانيين، بل وحتى يهود - عملنا على أن نأتلف ونتفق ونتحد في مواجهة الباغية المعتدية إسرائيل لزالت منذ زمن، بل ولما وُجدت أصلاً. فلعلَّ الله سبحانه يمتحننا بها وفيها، فهل نجتاز الامتحان بنجاح ؟!

وإذا جانبنا الامتحان فلم نعمل له، صارت أخلاق إسرائيل السيئة أخلاق فئات منّا تدين بديننا، وتتكلم لغتنا، فراحت تمارس علينا ما تمارسه إسرائيل علينا من عدوان وإرهاب وبغي، ولعلكم عرفتم فالتطرف هو المعنيّ والمقصود، وقد لبس ألفَ لبوس، واتخذ أشكالاً وأشكالاً، ولا حاجة لذكر عناوينه البراقة ولا أسمائه اللامعة التي نحسبها ظاهراً ذهباً، وهي في حقيقتها حِممٌ من نار جهنّم.

تعالوا إلى كلمة سواء، إلى كلمة الخير لنكون من أهلها، ومن ثمّ فكلمة الشرِّ بأهلها لن تقوى على مواجهتنا، لأننا تعلَّمنا من ديننا أنّ الخير أصل، وأنّ الشر طارئ وعرَض وعابر، ولا يتحول إلى ماكث إلا إذا فقد الخيرُ أنصارَه، أو قرر أهل الخير أن يتفرّقوا بعضهم عن بعض.

والآن هما كلمتان: فإمَّا الخير نتبنَّاه وننتمي إليه، وإمَّا الشر نتخذه رفيقاً.

فما أنتم مقررون يا سكّان مهد الديانات، ويا أبناء بناة الحضارات.. ؟! وإنّا لمنتظرون.

٢ - *التعايش ضرورة إنسانية، ينشدها الدِّين ويمليها العقل:*

أ - جاء في دستور المدينة الذي وضعه النبي محمَّد ﷺ في المادة الأولى منه: (وإنّ يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

وهذا النص يدل على أن المسلمين واليهود يشكلون أمة بالمعنى السياسي، متنوعة الانتماء الديني، لأنها تتشكل من أمتين بالمعنى العقدي [٢].

وها هو الإمام علي رضي الله عنه يقول في رسالة وجَّهها إلى واليه في مصر مالك بن الأشتر: «أشْعِر قلبَك الرحمةَ للرعية والمحبَّة لهم واللطف بهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» [٣]. وقد قال تعالى قبل هذا كله:

﴿لا إكراه في الدِّين﴾ البقرة: ٢٥٦.

وقال تعالى: ﴿فذكِّرْ إنما أنت مُذكِّر * لستَ عليهم بمسيطر﴾ الغاشية: ٢١-٢٢.

وقال: ﴿أفأنت تُكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾ يونس: ٩٩.

وهذه النصوص المنقولة عن الدِّين لا يغادرها العقل ولا المنطق

---

(٢) مهدي شمس الدين «في الاجتماع السياسي الإسلامي». ص ٢٩٠/١٩٩٢. بيروت.

(٣) نهج البلاغة ص ١١٧.

السليم الذي تفرضه الظروف الحياتية المشتركة والوطن الواحد والجغرافية المحددة.

ورحم الله الإمام الباقر ﵁ حين قال: (صلاح شأن الناس التعايش) (٤).

٣ - *مقومات التعايش المنشود:*

هما مقومان يختصران شروطاً كثيرة ومتعددة ومباحث وفيرة:

- الأول: ضمان الحقوق للأطراف، للأنا وللآخر، فحق كل طرف في المجتمع والوطن مصون ومرعي، لا يُنتهك ولا يساء إليه ولا يعتدى عليه.

قال تعالى: ﴿ولا تعتَدوا إنّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين﴾ البقرة: ١٩٠.

وقال تعالى: ﴿ولا يجرمنَّكم شنآنُ قومٌ على أن لا تَعدلوا اعدلُوا هو أقرب للتقوى﴾ المائدة: ٨.

وقد كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى نصارى نجران هذا نصّه:

(من محمَّد النبيٍّ رسول الله إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أنّ لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله، لا يُغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، ولا يغيّر حقٌّ من حقوقهم، ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله أبداً ما نصحوا واصطلحوا

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج٧١/ ص ١٦٧. دار إحياء التراث العربي ١٩٨٣.

فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين) [٥].

- الثاني: الاحترام المتبادل:

يبذله كلٌّ نحو الآخر، لأنَّ الإنسان بحدٍّ ذاته - وبغضٍّ النظر عن أيَّة صفة أخرى تلحقه - محترم ومكرّم. قال الله تعالى:

﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم ﴾ الإسراء: ٧٠.

وما هذا الاحترام إلا عهد إنساني قطعه الإنسان على نفسه، في سرِّه وإعلانه وأمام ربِّه، وعلى الإنسان أن يفيَ به ليكون متحققاً بإنسانيته منسجماً معها. قال تعالى:

﴿ وأوفوا بالعهد إنَّ العهدَ كان مسؤولاً ﴾ الإسراء: ٣٤.

وأهمُّ عهد هو عهد الإنسان مع الله ليعبدَه، وعهد الإنسان مع الإنسان ليحترمه، وما سوى ذلك من العهود توابع لهذين العهدين.

ولعلنا في هذا المجال نذكر أيضاً الأحلاف والمعاهدات التي عقدها رسول الله ﷺ مع قبائل اليهود وتجمعات النصارى وفئات المشركين، لتكون لنا شاهداً على ما قلناه من ضرورة التعايش بين الناس المختلفين ديناً وعقيدة، على أساس من احترام متبادل بينهم.

وما أروع ما قاله القرآن الكريم تأكيداً على ذلك:

﴿ لا ينهاكمُ اللهُ عن الذينَ لم يقاتلوكم في الدِّين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين ﴾ الممتحنة: ٨.

---

(٥) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، ص ١٧٦. علي الأحمدي: مكاتيب الرسول ﷺ، ص٣٣٢. وانظر: التنوع والتعايش. حسن الصفّار، ط . ٢٠٠٤ /دار التآخي دمشق.

- وفي النهاية:

هي دعوة الآنا والآخر إلى التعاون من أجل تحقيق تعايش مشترك آمن، وأمل نعيشه نبغي من أوراقه وظلاله أن يرعوي الممعنون في غيّ التفرّق والتشرذم عن غيّهم.

ويا أيها الناس لا تخلعوا ثوب إنسانيتكم بتطرّفكم وظلمكم وعنادكم وتعنتكم، بل أبقوه عليكم واعتنوا به، وحافظوا عليه أنيقاً نظيفاً حسناً، فستُسألون أمام ربكم وأجيال قادمة عنه، وإلا فستنتهون إلى:

﴿ فكذّبوه فعَقروها فدَمدمَ عليهم ربُّهم بذنبهم فسوّاها ولا يخافُ عُقباها ﴾ الشمس: ١٤-١٥.

الحركة الإسلامية السياسية

«إنَّ الدِّين حاكم على كل الشؤون الإنسانية، وحاكميته بقدر ما يستلزم كلُّ شأن منه. فالعبادة تقتضي حاكميةً كليَّةً مفصَّلةً من الدِّين عليها، والمعاملات تستلزم حاكمية كلية مُجمَلة، ... والسياسة تستلزم حاكمية توجيهية للدِّين عليها».

لا أبالغ إذا قلت: إنّ السياسة أثّرت سلباً على الإسلام يوم أقحمها من أقحمها على أنها مساحةٌ مهمة من مساحاته.

وإلا فهي - في رأيي - لا تعدو أن تكون مساحة مستقلة عنه يشرف عليها ويوجِّهها من غير أن يتماهى بها أو تتماهى ببعضه أو بجزء من أجزائه المكوِّنة له !

وعلى هذا، فنحن نقول:

الإسلام يوجِّه السياسة لتكون في ظلال الصفات الحميدة والسِّمات الرشيدة، من عدالة وأمان وحسن تواصل بين الحاكم والمحكوم، ولعلّ القرآن الكريم والسنة النبوية، وبعد تمحيصهما ودراستهما ينحوان النحو الذي ذكرنا، والوجهة التي عليها عرَّجنا، وقد كان محمَّدٌ ﷺ الرئيسُ وقائد الدولة يستظل بظل محمَّد النبيِّ والرسول ﷺ: حينما كان الأول يمارس المهام السياسية

الملقاة على عاتقه في المدينة المنورة. وتتابع على ذلك مَنْ بعده من الخلفاء الراشدين.

وها نحن أولاء نؤكد على أنّ السياسة - سلوكاً ومنهاجاً - لا يمكن أن تكون بمفرداتها المتقلبة والمختلفة من وقت إلى وقت ومن مكان إلى مكان، جزءاً ثابتاً بمعطياته وأحكامه من أجزاء الشريعة الإسلامية، وإلا فسيتحوّل الدِّين الحنيف بإسلامه وإيمانه وإحسانه إلى تابع مذعن للسياسة التي تأبى إلا أن تكون متبوعة قائدة، لأنها تعتلي سدَّة القيادة والسيادة الدنيوية، فمن جعلها جزءاً ثابتاً من الدين الحنيف فقد سلَّم بها رأساً، وإذا كانت رأساً للجسم الديني الإسلامي فستكون متحولاً تتبعه سائر الأجزاء، وهذا ما لم نعهده فيما قرأناه وعلمناه وفهمناه عن ديننا عبر النصوص والدلالات.

وخلاصة الأمر في رأيي:

أنّ الدِّين حاكم على كل الشؤون الإنسانية، وحاكميته بقدر ما يستلزم كلُّ شأن منه.

فالعبادة تقتضي حاكميةً كليَّة مفصَّلة من الدِّين عليها، والمعاملات تستلزم حاكمية كلية مُجمَلة، لأنها - أي المعاملات - تتجدد وتتغير، والسياسة تستلزم حاكمية توجيهية للدِّين عليها، تُتَفَقَّد تنزيلاتها بين حين وآخر من قِبَل علماء أبرار يحكمون على الملوك، ولا يحكم الملوك عليهم، لأنهم اتخذوا غير غرضهم في السلطة والسيادة والسياسة.

إنّ الملوك ليحكمون على الورى
وعلى الملوك لتحكم العلماء

ولعلي هنا لا أريد التدقيق في الأسباب والدوافع التي حوّلت العلاقة التي ذكرتها بين الدِّين والسياسة عن مسارها، لتجعل الدِّين سياسة، والسياسة ديناً، ولكني أكتفي بالقول أنّ ذلك كان نقطة تحوّل أدى إلى كوارث ونكبات وقعنا فيها، ولا يمكننا الخروج منها إلا إذا أعدنا النظر في قضية الإسلام والسياسة وطبيعة العلاقة بينهما.

نعم. هذا الذي حصل، وكان من نتائج ما حصل أن برزت حركات إسلامية سياسية على مساحة الزمن الممتد لحظة الخلط بين الدِّين والسياسة خلطاً لم يؤصَّل وفق معايير فقهية إسلامية دقيقة، وإلى أيامنا هذه، فالحركة الإسلامية السياسية الفلانية التي قامت في البلد الفلاني، سعت إلى السياسة وتماهت معها، وغلبَتها السياسة، ولكنها بقيت تتحرك باسم الإسلام ممثلةً له، ناطقة باسمه، وحوّلت كلَّ مفرداتها السياسية الاجتهادية إلى مفردات إسلامية تكليفية لا يجوز الانفكاك عنها، لأنها إسلام ودين وشرع، ولا نستثني هنا حركة من مجمل الحركات الإسلامية السياسية، فالجميع معنيون: من إخوان مسلمين إلى تحرير إلى سلفية إلى إسلامية إلى ....إلى...

وقد علّقت يوماً على كتاب بعنوان: «الطريق إلى حكم إسلامي»،

لكاتب إخواني لبناني، فقلت: كان الأولى أن يكون عنوان الكتاب «الطريق إلى حكم الإخوان المسلمين».

وإذ ننتقل لنتحدث عن عقابيل أحداث أيلول ٢٠٠١م، فإننا نؤكد أنّ هذه الأحداث لم تكن في خير المسلمين، ولا في خير الحركات السياسية الإسلامية، ودليلنا في ذلك ما نعاني وما يعانيه كل المسلمين في العالم، وأخطر نتيجة انحسرت عنها تلك الأحداث: ما أصاب الإسلام من تشوه في تصوُّر الذين لا يعرفونه أو الذين عرفوه معرفةً مجمَلة بسيطة غير معمّقة.

وكذلك ما لحق المسلمين من حرص استنفد قدراتهم لكي يدافعوا عن إسلامهم، وأنه بريء من العنف والتعصب والإرهاب وما شابه ، وقد كررنا كثيراً مقولة مفادها: لو أنّ «القاعدة» كانت حركة ثورية صرفة ولم تتبَدَّ بسمة الإسلام والإسلامية لكان الموقف حيالها مغايراً لما هو عليه الآن حين تبدت باسم الإسلام وظهرت تحت عنوانه.

وأنا على يقين أننا كنا سندعمها ما دامت ثورية إنسانية تتكلم باسم المظلومين، وتنافح عنهم وتناضل عن حقوقهم في مواجهة الظالمين، ما دامت مرجعيتها هي رؤيتها الخاصة بها، ففي أسوأ الأحوال يقال عنها: مناضل ضد الظلم أخطأ الطريق، لكنها حينما تكلمت باسم الإسلام وتجلّت من خلاله؛ فهي بذلك قد صادرت آراءنا وحسمت مواقفنا لصالحها، أو ربما أخرجَتنا من ديننا إن لم نقف مؤيدين لها، وهذا ما جعل الأوراقَ تختلط والمفاهيم تتيه

وتضيع، والمسلمين في خصام فظيع فيما بينهم.

نأمل من الحركات الإسلامية السياسية أن تُبقي في عناوينها على «السياسة»، وأن تحذف الإسلامية، وعندها فنحن معها، وداعمون لخير فيها، وناصحون لها لشرٍّ يصدر عنها وهكذا...

وإلا فسيبقى الصراع الإسلاميُّ-الإسلاميُّ مستمراً وموفراً فرصة سانحة للمغرضين، فينفذون عبرها ويصطادون في الماء العكر.

يا قوم عودوا إلى إسلام القرآن الكريم والسنة الشريفة في رسم طبيعة علاقة الدِّين بالحياة، عبادةً ومعاملات واقتصاداً وسياسة.

وخلاصةُ خلاصةِ الأمر:

الإسلام مع الخير في ميدان السياسة، لكنه لا يثبت مفردات ثابتة مفصلة في هذا الحقل، فالناس أعلم بأمور دنياهم، وعليهم أن يوجِّهوها من حيث النية النظيفة والغاية النبيلة النافعة، لتصبَّ في مصبٍّ العبودية:

﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ البقرة:٢٨٢.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال، عندما أرسل سرية موجِّهاً قائدها: **(وإن حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تنزلَهم على حكم الله فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)** [1].

---

(١) أخرجه مسلم عن بريدة ﷺ.

الإسلام بين التطرف والاعتدال

«أشعِر قلبَك الرحمةَ للرعية والمحبَّة لهم واللطف بهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» الإمام علي (ع).

ويبقى الإسلام دينَ الاعتدال وضد التطرف بجهتيه اليمنى واليسرى، أو بمعنى آخر:

سيظل الإسلام دينَ العدل هدفاً يسعى إلى تحقيقه في كل شيء، والاعتدالِ سبيلاً إلى تحقيق العدل:

﴿ وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخسروا الميزان ﴾ الرحمن: ٩.

والاعتدال افتعال، والافتعال مجاهدة وعملٌ متواصل دؤوب للوصول إلى العدل.

والاعتدال انطلاقٌ من الوسط والمركز نحو المحيط لتشكيله مداراً يمتد على مسافة واحدة - في كل مساره - من المركز، ولا يسمح الإسلام لمدار المحيط أن يكون في بعض نقاطه أقرب إلى المركز، وإلا فالدائرة فوضى، والتعرج والتعثر حاكمان.

- الدائرة الأولى الأوسع مداراً: الإنسانية.

وما المحيط إلا الناس كافة، وما المركز إلا الإسلام في تجلياته

النصية القطعية، يمثله بشراً رسول الله محمدٌ ﷺ، والدعوة منه متوجّهة للإنسانية على قدر موحّد من دون تمييز:

﴿ وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ﴾ سبأ ٢٨ .

﴿ يا أيُّها الناسُ اعبُدوا ربَّكم الذي خلَقكم والذين مِن قبلكم لعلكم تتقون ﴾ البقرة ٢١ .

- الدائرة الثانية الأوسط موضعاً: المؤمنون.

ويستجيب من يستجيب فيشكل المستجيبون دائرةً ضمن الدائرة هي أقرب إلى المركز:

﴿ وسارعوا إلى مغفرة مِنْ ربكم ﴾ آل عمران ١٣٣ .

بيد أن هذه الدائرة الجديدة ذات محيط مستدير لا تعرُّج فيه أيضاً، وكل نقاطه ذات بعد واحد ومتماثل عن المركز:

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ الحجرات ١٠ .

و (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله)، و (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم)، و (لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، وهكذا...

لكن النقاط المشكّلة للمحيط تختلف في جوهرها وتكوينها استعداداً وسرعة اكتساب، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، والذهب والفضة المكوِّنة للمحيط لا تتعالى ولا تتكبر على النقاط الأخرى التي يبتعد تكوينها عن الذهب والفضة: (إنّ اللهَ أوحى إليّ

---

(١) أخرج هذه الأحاديث على التوالي: مسلم، وأحمد وابن ماجه، والشيخان.

أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد) [٢].

- الدائرة الثالثة: المبرزون والمجتهدون.

وبعد هاتيك الدائرة تبرز دائرة المبرزين والمتميزين من رجالات الأمة ونسائها لتكون على بعد متساوٍ في محيطها بالنسبة إلى مركز الدائرة، من حيث اعتبار أقوالهم وقبول اجتهادهم ما داموا قد قدروا على أن يكونوا كذلك بجدهم وعملهم وسعيهم، لا فرق بين واحد وآخر في الاعتبار وإعطائهم أجراً إن أخطؤوا، وأجرين إذا أصابوا: **(إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد)** [٣].

وكما فرّقنا بين النقاط ذاتها في الدائرة السابقة وقلنا إنها معادن كمعادن الذهب والفضة، كذلك نفعل هنا، فالنقاط المكوِّنة للدائرة الثالثة تختلف فيما بينها من حيث قوتها الدراسية والاجتهادية وسعة مجال دورانها وانفتاحها على ميادين الحياة من اقتصاد واجتماع وعبادات وسواها.

وعلى كلٍّ فهي أقوال اجتهادية لا تتعاير على بعضها، وليس ثمة رأي صادر عن هذا أو ذاك يمكن أن يكون له شميمٌ من الحاكمية على الآراء الأخرى.

---

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه الشيخان.

مآخذ التطرف في الدوائر الثلاث

- مأخذ التطرف في الدائرة الأولى:

وتأتي المشكلة في الدوائر كلها حين نميّز في الخطاب بين فئة وفئة بالنسبة للدائرة الأولى، ونحكم على مَنْ لم يبلغه الإسلام - بالقوة نفسها التي بلغ بها فئةٌ أخرى - بالمروق والكفر والختم النهائي بأنه من أهل النار، وربما أذقناه لهيبها في الدنيا قبل الآخرة.

- وفي الدائرة الثانية:

وفيما يخص الدائرة الثانية فإنّ التطرف فيها يأتي حينما تمتط فئات لتدعي قرباً أكثر نحو المركز، لأنها تتسمى بالإضافة إلى الإسلام - الذي هو اسمها الأساس - بكذا أو كذا، من صوفية وسلفية وشيعية وسُنية، وما أكثر هذه الصفات وأغزرها، وها نحن أولاء الآن نبغي الازدياد لنوصلها إلى أكثر من سبعين فرقة، فترتاح قلوبنا القلقة لشهودها افتراقَ الأمة إلى بضع وسبعين فرقة، فيا ويحنا !

وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

كان ينبغي أن تكون الدائرة الثانية سلسة جميلة واضحة محكومة بثلاث كلمات هي: (**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**)(٤).

ولكنها غدت محكومة بآلاف الفئات من الكلمات والعبارات،

---

(٤) أخرجه مسلم.

فلكلٍّ دينه وفقهه ورجالاته وتاريخه، ... وسبحان الله ؟!

- ومشكلة الدائرة الثالثة:

أما مشكلة الدائرة الثالثة فقد قلَّصنا محيطها إلى بعضه، ورفضنا جُلَّه، ولم نفهم حتى هذا الذي اعتمدناه منه.

نفينا منه أناساً لا لذنب سوى أنهم مجتهدون بجدارة، وكان دافع نفيهم لدينا أنهم ليسوا مَنْ تعوَّدنا الأخذ عنهم، أو أنّ الحكام السياسيين في لحظة من لحظات التاريخ أوعزوا إلى شيوخ السلطة بعدم الأخذ عنهم وتحذير الناس من أن يأخذوا عنهم.

وأضحت الدائرة الثالثة في بلادنا أبا حنيفة فحسب، ثم أضيف إليها الشافعي وبعد جهد جهيد، واتسعنا لنضيف إليها أحياناً مالكاً وابن حنبل، ومَنْ عدا ذلك لا وألف لا ... وفي بلاد أخرى وقف ابن تيمية مسيطراً على هذه الدائرة، ولدى آخرين تسلم جعفر الصادق زمامها، وهكذا ...

والأدهى من ذلك كله أنّ هذه الدائرة وضع المتطرفون عليها لافتة طويلة عريضة مكتوباً عليها: «ممنوع على المعاصرين المساهمة فيها»، وإلا رميناهم بالمروق والكفر، وربما أتبعنا ذلك عقاباً بالتشريد والتقتيل.

يا أمة الإسلام:

التطرف في كل الدوائر مرفوض، وهو تشويه للدوائر التي أرادها الله منتظمة جيدة.

الموقف الصحيح حيال أفراد الدوائر الثلاث

- الموقف حيال أفراد الدائرة الأولى:

فالناس فيما يتعلّق بالدائرة الأولى نظراء لك في الخلق أيها المسلم، وهم مكرّمون محترمون بشكل عام، وعليك تحمّل إساءاتهم لتعلّمهم بحالك قبل قالك كيف يتعامل الإنسان مع الإنسان، مستمداً ذلك من المركز الإشعاعي العظيم الممثل بكتاب الله نظراً وسيرة النبيِّ محمد ﷺ وشخصيته عملاً وتطبيقاً.

- وتجاه أفراد الدائرة الثانية:

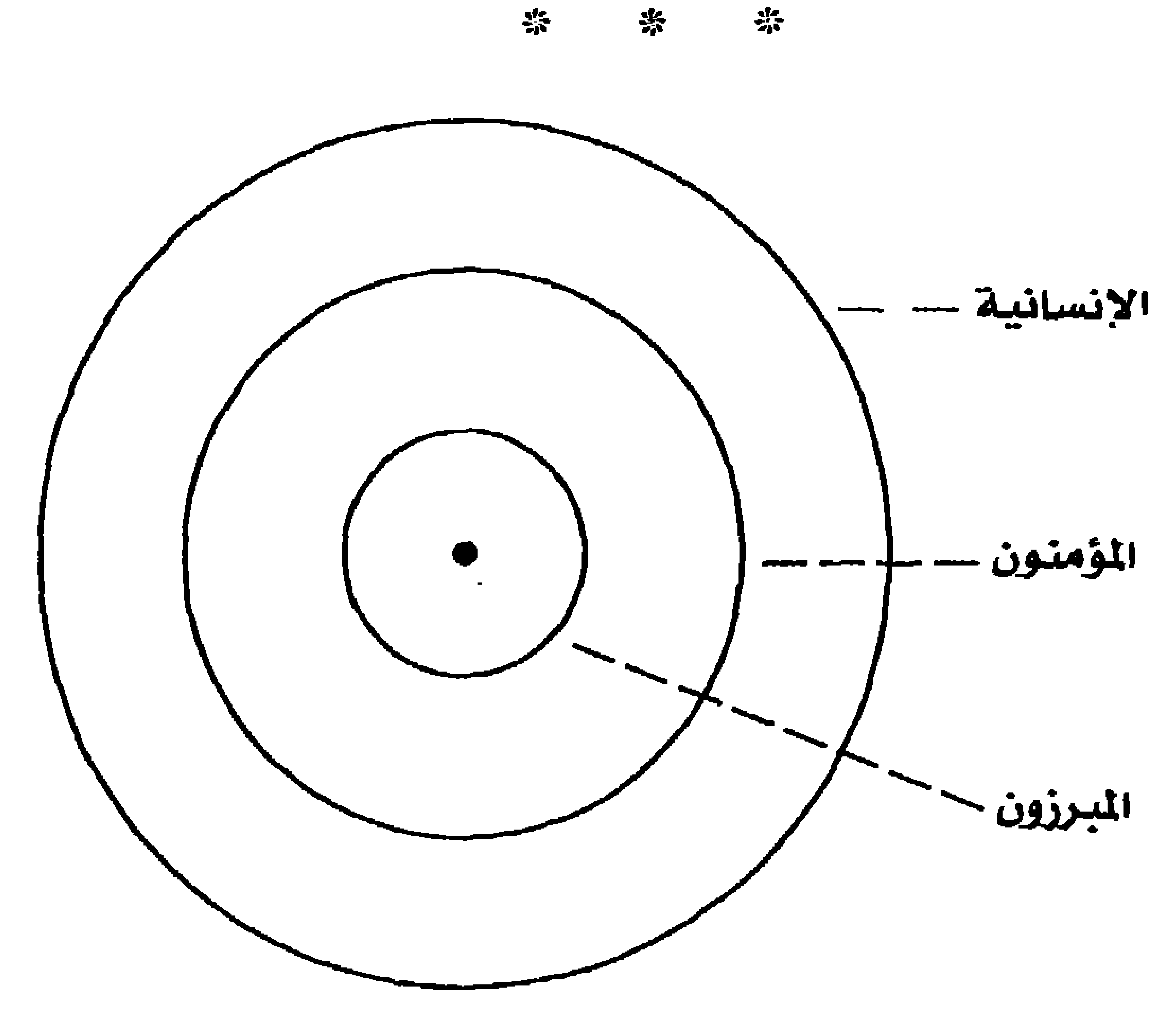
وأما الدائرة الثانية فالناس المكوِّنون لها إخوة برسم القرآن الذي سمّاهم كذلك: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾، والمسلم أخو المسلم له تجاهه حقوق وعليه حياله واجبات، وقد تكفّل القرآن الكريم وحفل بتفصيلها، وكذلك محمَّد رسول الإسلام ﷺ.

- وأمام أفراد الدائرة الثالثة:

وحين نأتي أخيراً إلى الدائرة الثالثة: فكل أناسها والممثلين لها مقدَّرة أقوالهم واجتهاداتهم ومعتبرةٌ فتاواهم، غير أنك لا تلزم بواحد منهم، إنما اختيارك هو السبيل إلى أخذ ما اطمأننت إليه والعدول عمّا لم تطمئن إليه، من غير لمز وهمز لهذا الذي تركت وعنه عدلت، بل لقد استقرّ في داخلك اعتبارهم وتقديرهم: (ليس

منّا من لم يجلَّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقَّه) [٥].

* * *



وكلٌّ في فلك يسبحون



وكلٌّ في مدار متعرج يتعثرون

(٥) أخرجه أحمد والطبراني.

تعليقات ومصارحات ومناشدات *

«... أناشدكم اللهَ أيُّها العرب وأيُّها المسلمون أن توقفوا سيل الدماء فيما بينكم، وتصالحوا مع أنفسكم، واخرجوا من ساحة الادعاء إلى دائرة الفعل، واهجروا التعالي واعترفوا بتقصيركم ...».

لا زلت أقول بيني وبين نفسي:

إنَّ الكلام كَثُر، وإنَّ الفعل قَلَّ، ولا زلت أردِّد بيني وبين نفسي بأننا - نحن الذين أسلمنا لله عزَّ وجل في عصرنا الراهن - نسعى إلى زخرفة القول، وإلى عدم إتقان العمل، وهنالك علاقةٌ جدليةٌ واضحة بيِّنة تقول: إذا حَسُن القول حَسُن العمل.

وإذا كنا نظنُّ أنفسنا بأنَّا نحسن القول ولا نحسن العمل فذاك وهمٌ، لأنَّ من أحسن القول أحسنَ العمل، ومن أحسنَ العمل أحسن القول.

أقول هذا وقد سُئلت أكثر من عشر مرات خلال هذا الأسبوع عن موقف الإسلام تجاه ما حدث في الرياض، وما حدث في الدار البيضاء في المغرب، وهل يُقِرُّ الإسلام هذا أو لا يقرُّه ؟

* هذا الفصل أصلاً خطبة ألقيت بتاريخ ٢٠٠٣/٥/٢٣ تعليقاً على تفجيرات الرياض والدار البيضاء.

تصوَّروا - أيُّها الإخوة -هذا الذي وصلنا إليه، بحيث أضحى الواحد منَّا ومنكم لا يعرف فيما إذا كان هذا التصرُّف موافقاً للشريعة أو غير موافق !

تصوَّروا هذه الهُوَّة السحيقة التي وصلنا إليها، حتى أصبح الواحد منا حيراناً؛ تصوروا هذا الذي وصلنا إليه وفظاعتَه !

وفعلاً، عندما كنت أُسأَل هذا السؤال كنت أحَار كيف سأجيب:

أأجامل مَنْ فعل هذه الفعلة، بغضِّ النظر عمَّن فعل ؟! أأقول عن هؤلاء بأنهم مجاهدون فيما إذا ثبت بأن الذين فعلوا ذلك هم من المسلمين ؟!

أأجامل الحكومات التي تطلب حكم الإسلام في مثل هذه الأمور، أو في مثل هذه الدروس فقط ؟! فعندما تحدث مثل هذه الدروس تتوجَّه الحكومات إلى علماء الدين لتسألهم هذا السؤال الذي ذكرناه.

كيف أتكلم ؟ قلت في نفسي:

لو أننا كنَّا نتَّجه في كلِّ أعمالنا إلى ربِّنا لما وقعنا في مثل هذه الحَيرة؛ لقد حِرتُ أنا لأنني ما خططت الخطَّة منذ البداية في أن أتكلم للّه عز وجل دائماً.

لقد وقعت في حيرة لأنني ما حاولت منذ البداية أن أتكلم لأصيب الشريعة الإسلامية وأوافقها، فأنا حيران !

وفعلاً، لو سُئلتم هذا السؤال الذي سئلته لأجبتم نفس الجواب أو لوقعتم في الحيرة التي وقعت فيها.

أخذتُ القلم ورحت أكتب تعليقاً عن هذا الذي حدث، فكان الذي كتبته يوافق ما كتبته منذ سنتين بحروفه وكلماته وأفكاره.

قلت في نفسي:

إذن سأعيد الكرَّة، لأذكِّركم بما ذكرته في حديثي منذ سنتين، ولذلك اسمحوا لي أن أخاطب نفسي، وأن أخاطب الإنسان، وأن أخاطب المسلمين، وأن أخاطب العرب، وأن أخاطب الإنسان أينما كان لأقول له:

١ - لا يقهر بعضكم بعضاً، فالقهر في النهاية يؤدي إلى انفجار.

أخاطب كلَّ مسؤولٍ في كلِّ عالَمنا الذي نعيش فيه، وأخصُّ المسؤولين في العالَمين العربي والإسلامي، وما ثمَّة أحدٌ خارج عن نطاق الاختراق بالانفجار إذا ما قَهَرَ، فلا تقهر يا رجلَ الدين الناسَ بالشدَّة فيقهرك الله بمن يُخرجك عن الدِّين البتَّة.

إنَّ أناساً منَّا، من بني جلدتنا، احتكروا موقف الدين وحكم الدين، ولا يسمحون لغيرهم أنَّ يتكلم باسم هذا الدِّين، فهم الذين يتكلمون باسمه وحدهم دون سواهم، وهم الذين يُصدِّرون الفتوى دون سواهم، وهم الذين يقولون: هذا حلال وهذا حرام دون سواهم، وإذا ما خالفتَهم فالويل لك، وربما كنت محكوماً عليه بالإعدام من قِبَلهم على أنَّك خارج عن الملة، وهم الذين سيتولَّون تنفيذَ حكم الإعدام فيك لأنك مرتد !

يا رجلَ الدين لا تقهر غيرك في الشدة فيقهرَك اللهُ.

يا رجلَ السلطة لا تقهر الناسَ بالقسوة فيقهرَك الله ويسلطَ عليك من لا يرحمك.

أيُّها الأب: لا تقهر ولدَك فيقهرَك الله.

وكذلك أنت أيُّها الابن، لا تقهر والدَك بالعقوق فيقهرَك الله.

ولا يحسبن الظالمُ نفسه بمنأىً عن جزاء لظلمه ولو من ظالم مثله، أو من آخر أشد ظلماً، وقد أُحكمتْ سُنَّةٌ إلهية تجلَّت بعبارة نرددها: وما مِن ظالم إلا وسيُبلى بأظلم منه، والظلمُ رذيلة الرذائل، وهو ظلماتٌ في الدنيا والآخرة.

٢ - ابتعد أيُها العالَم عن الإرهاب.

والإرهاب اعتداءٌ على آمن غير ظالم، والاعتداء قد يكون باللسان على العرض، وقد يكون بالسلاح على الجسم.

إن حادثَتي الرياض والدار البيضاء فيهما اعتداء على آمن، وقد تقول لي: أليست أمريكا تمارس الإرهاب ؟! أليست إسرائيل تمارس الإرهاب ؟! سأقول نعم، ولكن: نحن لسنا من أولئك الذين ينتقمون من أمريكا وإسرائيل من خلال الاعتداء على آمنين، لا ... انتقم من الإرهابي نفسه، انتقم ممن يسلِّط عليك الظلم حيث هو.

أنا أناشد أولئك الذين قاموا بعمليات الرياض والدار البيضاء أن يوحِّدوا ساحة الحرب، وساحةُ الحرب فلسطين، وعلى الذين يريدون - من المسلمين والعرب - أن يثبتوا جهادَهم وأنَّهم مجاهدون

أن ينتقلوا إلى هناك ليخرجوا إسرائيل من أرض فلسطين، فقد ثبت بالعقل والنقل أنَّ فلسطين مظلومة محتلة، وثبت أن إسرائيل ظالمة مستعمرة، آثمة معتدية، فهناك - بإذن ولي الأمر، وبإذن الجماعة المسلمة، وباتفاقٍ بين المسلمين كافة - هناك تكون الحرب، هنالك تكون العمليات القتالية الفدائية الاستشهادية، بالاتفاق بين كلِّ المسلمين، وبالتعاون بين كلِّ المسلمين، وبالائتلاف بين جميع المسلمين من خلال ممثليهم الشرعيين. هذه أحكام إسلامية فلِمَ نعدل عنها ؟

٣ - ذكرى تحرير الجنوب.

نبارك للمقاومة الإسلامية ذكرى تحرير الجنوب، فقد كانوا في قتالهم أعداءَ الله، كانوا على حق، لأنهم قاتلوا مستعمراً غاشماً دخل أرضهم، عبثَ بثرواتهم، قتل أبناءهم، يتَّم أولادهم، استحيا نساءهم، اعتدى على أعراضهم، فأخرجوه مقاوِمين !

ولكن تحت أي بندٍ من بنود الجهاد يمكن أن نضع مثل هاتين الحادثتين في الرياض والدار البيضاء ؟

لسنا مع الحكومتين، نحن مع إسلامنا، نريد أن نكون مسلمين في صغير الأفعال وفي كبيرها، نريد أن نكون طائعين لربِّنا في الصغيرة والكبيرة، في الحقيرة والعظيمة، نريد في الكلمة التي نقولها حين نقولها أن تكون موافقةً لشرع الله، نريد لفعلة تَصدُر عنَّا أن تكون موافقة الإسلامَ الحق، نريد أن نكون مسلمين وكفى.

٤ - أين آداب القتال وأخلاقه ؟

يا جميعَ من يمارس القتال: نناشدكم إنسانيتكم، ونناشدكم اللهَ أن تتحلوا بآداب القتال، فلا تقتلوا بريئاً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تغدروا، ولا تضربوا شيخاً ولا امرأة، ولا تُمَثلوا، ولا تبطشوا، كما نناشدكم أن تستبدلوا بالحرب السلامَ، وبالفوضى الأمان، وبالظلم العدالة.

٥ - سعادة الإنسان في اطمئنانه.

إنَّ أفظع ما يمكن أن يكون مرتكَباً في حق الإنسان هو بثٌّ الرعب والاضطراب والخوف، وإنَّ المجتمع غير الآمن هو أكثر المجتمعات تأخراً حتى ولو استخدم أرقى وأحدث التقنيات، فسعادة الإنسان وإسعاده هو بالعمل على استقرار داخله وليس بترفيه جسده فحسب.

٦ - دعوا السياسة للمختصين فيها.

السياسة يا ناس لها أربابها، وأسألُ: لم يشتغل كلُّنا بمثل هذا العمل، ولا قدرة لنا على الاشتغال بمثل هذا العمل، ولا قدرة لنا على السياسة ولا نعرفها ؟

السياسة لها أربابها ومختصوها، وقد غدت اليوم علماً له أصول وقواعد وأسس. لقد قلت لإخوتي أهل العلم:

تعالوا لنعمل في الحقل الاجتماعي، تعالوا لنصلح أبناءنا، تعالوا

من أجل أن نصلح بناتنا، واتركوا السياسة لأربابها، انصحوا السياسيين، وأَرُوهم وأنتم تنصحوهم أنكم لا تزاحمونهم على كراسيهم حتى يستجيبوا لنصحكم !

نحن ننصح السياسيين وفي نصحنا شميمٌ من إرادة احتلال الأمكنة «الكراسي».

كلنا أضحى ساعياً من أجل منصِب مسؤول أو من أجل مكانة سياسية، العالِم غدا يفكِّر في السياسة، والصانع غدا يفكر في السياسة، والتاجر غدا يفكر في السياسة، ليس تفكيرَ نُصح، وإنما تفكيره تفكير وصول، يريد أن يصل ويستلم، أن يكون رئيساً مسؤولاً، يريد أن يكون محافظاً، وزيراً، مسؤولاً في قيادة، كلنا وقعنا في مثل هذه الترَّهات.

يا ناس:

الساحة الاجتماعية فارغة، لأنَّ جميع من فيها من الإصلاحيين تركوها للسياسة، فغدت ضائعةً مضيَّعة، وأصبح أبناؤنا ضائعين.

بعد أيام ستأتي عطلة الصيف وستجد الضياع يلف أبناءنا وبناتنا وطلابنا وطالباتنا، لأننا تركنا وأهملنا هذه الساحة الهامة والهامة جداً.

علِّموا أبناءكم حبَّ الله، علِّموا أبناءكم طاعة الله، لا تقولوا لأولادكم: إن السياسي صاحب نفع، وعلينا أن نسعى لهذا النفع ! عندها سيتحول أولادكم إلى مشاريع سياسيين ضعاف، لأنهم لم يختصوا في السياسة، وإنما أهملوا العمل ولم يفلحوا في الدراسة

فأصبحنا في فوضى وفي ضياعٍ ما بعده ضياع.

السياسة - يا إخوتي - لها أصول، ولها قواعد وأسس، ونحن حينما نتحدث عن سيدنا رسول الله ﷺ نُقدِّمه للناس على أنه سياسي ولكن للسياسيين، ونقدِّمه على أنه اجتماعي ولكن للاجتماعيين، نقدِّمه على أنه اقتصادي ولكن للاقتصاديين، وعلى كلٍّ واحد منَّا أن يعيش مختصاً في دائرته، وألا يتطلع إلى دائرة أخرى حاسداً أصحابها على منافع ظاهرية وصلت إليهم.

٧ - الحرب لا نريدها، فهي صورة من صور الإرهاب.

وعلى الذين يرفضون الإرهاب أن يرفضوا الحرب أيضاً، وقد كان الصحابة الكرام لا يحبُّون الحرب، ولكنها ضرورة والضرورة تُقَدَّر بقدرها، وكانوا ينشدون فيما بينهم - كما يروي البخاري - قول امرئ القيس:

الحـــرب أول مـــا تـــكـــون فـــتـــيَّـــةً
تـسـعـى بـزيـنـتـهـا لـكـل جـهـول
حـتـى إذا اشـتـعـلـت وشـبَّ ضـرامـهـا
ولَّـت عـجـوزاً غـيـر ذات حـلـيـل
شَـمـطـاء يُـنـكَـر لـونـهـا وتـغـيَّـرت
مـكـروهـةً لـلـشـمِّ والـتـقـبـيـل

لا يريدون الحرب، ونحن إن قلنا للناس: لا نريد الحرب، فسوف

نُتَّهم بالخَوَر والجبن، وإن قلنا للناس: نريد الحرب، فلا نعرف قواعد الحرب، ومتى تكون الحرب واجبة، وكيف يمكن أن نحارب، ولا نملك أدوات الحرب !

نحن في ضياع، ونحن في برزخ بين الحقيقة والباطل، ولا نعرف ولا نقدِّر، أللحقيقة ننتمي وليس عندنا ما ندفع من ثمنٍ لذلك، أم للباطل ننتمي والله يأمرنا ألا ننتمي للباطل ؟!

٨ - الظلم رذيلةُ الرذائل.

يقول الله في الحديث القدسي: (**يا عبادي: إني حرَّمت الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا**) [(١)].

٩ - لا تنسبوا إلى دينكم ما ليس منه.

على كلِّ من يريد قولاً أو عملاً منسوباً إلى ديننا أن يتأكد مِن صحة النسبة بسؤال المختص الخبير التقي، وإلا فهو ظالم لهذا المبدأ أو ذاك الدين !

وكم ظَلَم أبناء الإسلام دينَهم إذ نسبوا إليه ما ليس منه !

وكم ظلموا إخواناً لهم إذ أخرجوهم من رحاب الدين لأنهم لم يوافقوهم على نسبة ما ألحقوه بالإسلام على أنه إسلام !

فئات قليلة تريد أن تفرض علينا فهمَ الإسلام، وتريد أن تقول لنا بحماية البارودة والسلاح بأن ما تقوله هو الإسلام !

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي ذر ﷺ.

لا يا ناس ! الإسلام كتابٌ وسنة، الإسلام قرآن وسيرة المصطفى العدنان ﷺ الذي نحتفل بمولده هذا الشهر الكريم:

(لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) [٢].

الإسلام كتاب الله، الإسلام اجتهاد من عالِمٍ عارفٍ تقي، يستنبط من المصحف الشريف ومن السُّنّة المطهرة، من القرآن الكريم ومن السيرة العطرة، وليس الإسلام كلاماً يحمل في ظاهره حرباً على المعتدين، حتى إذا ما قال الإنسان هذه الكلمة أضحى على أساسها قادراً على الإفتاء وعلى قول أحكام الإسلام، وما قوله ولا فتواه بصحيحين.

١٠ - العرب والمسلمون بحاجة إلى مصالحة مع أنفسهم.

والمصالحة أن نخرج من ساحة الادِّعاء والثرثرة إلى دائرة الفعل، وأن نهجر التعالي والتكبر والهرج السياسي والاتكاء على التاريخ، وأن نعترف بقصورنا وتقصيرنا حتى ولو اختلف غيرنا معنا، وكفانا كذباً على الله والإنسان أن نقول ما لا نعمل، وأن نجانب الصواب في سلوكنا !

١١ - أوقفوا سيل الدماء فيما بينكم.

أناشدكم الله أيُّها العرب، أيُّها المسلمون أن توقفوا سيل الدماء

(٢) أخرجه ابن ماجه.

فيما بينكم، لقد رأيتُ من قتل أو من استشهد بالأحرى في الدار البيضاء. لقد رأيت أطفالاً مسلمين لا جريرة لهم، هم في بلدهم وليسوا في فلسطين بجانب الإسرائيليين، بل هم في بلدهم فجاء من اعتدى عليهم بحجة أنه يريد غيرهم، فهو وإن قتلهم فلا يرى بأساً لأنه يريد أن يقتل أجانب !

حتى هؤلاء الأجانب دخلوا المغرب ودخلوا الرياض - بغض النظر عن كل شيء - دخلوا بعهدٍ مع الحكومة القائمة، هذا العهد إن كان خاطئاً فعليك أن تطالب الحكومة بتصويبه لا أن تقتل هؤلاء الأجانب معتقداً أن هذا جهاد.

١٢ - الجهاد فريضةٌ جماعية منوطة بولي الأمر.

أنا لا أعتقد أن جهاد هؤلاء يمكن أن يكون الجهاد الإسلامي المطلوب، فهم إن كانوا مأجورين على نيَّاتهم - إن صحَّت - لكنني أقول: إن فعلهم يخالف شريعة الله، لأن الله فرض هذه الفريضة على أن تُنفَّذ من خلال الأمة المسلمة، من خلال الحاكم المسلم، من خلال القائم بالأمر، من خلال الراية التي يجتمع تحتها المسلمون بإمرة أمير.

فإن قال لي قائل: إن كان هؤلاء الحاكمون لا يجاهدون فماذا نفعل ؟

أقول: عليك أن تجاهد من أجل أن تقنعهم بالجهاد لأن الجهاد كالحدود؛ فلو أن إنساناً جاءك اليوم وقال عن نفسه بأنه زنا وهو

محصن - متزوج - فهل تقوم أنت بتنفيذ الحد فترجمَه ؟! ولو كرر الاعتراف وجاء بعد الاعتراف بالشهود وشهدوا بأنه زنا وأنت في مكانك هل تنفذ فيه الحد ؟! هل ترجُمُه ؟!

ما أعتقد أن واحداً من المسلمين يقول: نعم أنفذ فيه الحد، ولكنه سيقول: هذا الأمر موكل بحاكم المسلمين، بولي أمر المسلمين.

فإن قال قائل: إنَّ الحاكم لا ينفذ ولا يقيم حدود الله ! أقول: عليك أن تسعى وأن تجاهد وأن تقنع هذا الحاكم حتى ينفذ وحتى يقيم حدود الله.

والجهاد كذلك، الجهاد لا يُطَبَّق بشكل فردي وإنما الجهاد فريضة جماعية لها راية ولها إمرة، وها هو رسول الله ﷺ علَّمنا هذا وقدَّم لنا هذا في حياته المليئة بالجهاد والقتال والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أناشدكم الله أن توقفوا سيل الدماء فيما بينكم، وأناشدكم الله أن توحِّدوا أنفسكم تحت راية رحمة الإسلام، وأن تدعوا غيركم إلى ذلك، واعلموا أن لكم عدواً أكيداً هو إسرائيل المعتدية الآثمة التي ما فتئت تجمع قواها ضدكم.

أيُّها المسلمون: هذه مبادئ أحببت أن أسمعكم إياها:

١٣ - الإسلام الأوسعُ حصانةٌ، والمواطنة حصانة، والإنسانية غير الظالمة حصانة، فهل أنتم مدركون ؟!

نحن لا ننتقم من أخ الفاعل لأننا لم نستطع النيل من الفاعل،

هذه بعض قوانين شريعة الغاب، وحينما ينتقم إنسان من إنسان آخر ليس الفاعل، فليس ذلك بإنسانية فضلاً عن أن يكون إسلاماً، ليس ذلك بإسلام، هكذا أعتقد، وهكذا أؤمن، وهكذا أدين نفسي أمام الله عز وجل.

١٤ - من الذي يحارب الإسلام ؟

سؤال نطرحه كثيراً، والجواب: الذي يحارب الإسلام أصناف، منهم:

طواغيت لا تحبُّ الحق ولا الحوار ولا الحياة الآمنة، ومسلمون معسِّرون يعدون دينهم جاهزية دائمة لإصبعٍ على زنادِ سلاحٍ يتهدَّدُ الناسَ بالرعب في الدنيا والآخرة.

وبالرغم من ذلك فأنا أقول عن هؤلاء بأنهم مسلمون، ولا أتهمهم بالمروق من الإسلام، لكني أقول: إنهم مخطئون، فيجب أن ننصحهم، وإذا امتلكنا قوة فيجب أن نردعهم، ويجب أن نحمي المجتمعات منهم.

١٥ - الصحة والإخلاص مبدآن أساسيان وشرطان ضروريان لممارسة الدعوة.

يا أبناء العالم:

الصحة والإخلاص مبدآن أساسيان وشرطان ضروريان لممارسة الدعوة، ولا يكفي أحدهما دون الآخر.

يقول لي بعض الإخوة - وقد سمَّيت مثل هؤلاء الإخوة: محامين عن مجهولين - مدافعين عن بعض هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه العمليات التي أراها غير شرعية، يقولون لي: ألم تنظر إليهم ! تركوا الرخاء، وتركوا الرِّفاه، وخلدوا إلى الجبال، أليسوا من المُضحِّين ؟! تركوا العِزَّ المادي، وتركوا بلادهم وعزفوا عن أموالهم وعن زخارف الدنيا !

أقول لهؤلاء: نحن ندرك - إن وافقناكم - بأن نيَّة هؤلاء طيبة، ولكن أذكركم بأن الصحة والإخلاص لا بدَّ منهما، لا بدَّ من النية الطيبة، ولا بدَّ من أن يكون مع النية الطيبة العملُ الصالح الموافق لشرع الله.

العمل الصالح والنية الطيبة مبدآن أساسيان لا حَيْدَ عنهما، وإذا كانت الصحة تعني الصواب والسَّداد لشرع الله المجيد في الأعمال والأقوال، فإن الإخلاص يعني التقوى والنية الطيبة في الصدور والخوف من الله.

١٦ - نناشد المسلمين والعرب ألاَّ يكون بأسُهم بينهم شديداً.

وأذكرهم بحديثين شريفين صحيحين:

- أما أحدهما فيقول ﷺ: **(إنَّ الشيطان قد أَيِسَ من أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)** (٢).

وأعتقد أنه سيكتفي بالتحريش لأن التحريش سيؤدي إلى

(٢) أخرجه مسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الاقتتال، والاقتتال سيؤدي إلى الإبادة، أرَأيتم كيف كانت النتيجة لأننا اقتتلنا ولأننا تحرَّشنا ببعضنا ؟ كانت النتيجة وصاية أمريكية على العراق أُعلنت أمس، واتفق مجلس الأمن على ذلك، وإن سألنا عن السبب، وحاشا لله أن يكون ظالماً، لرأينا أن سبب هذا نحن:

﴿ وما ظلمناهُمْ ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون ﴾ النحل/١١٨.

لأننا تحرَّشنا فيما بيننا، ولأنَّ بعضنا أساء إلى بعض، أصبحنا مستعمَرين في العراق، وأُعلن احتلال العراق على مرأى من العالم، وقال بعضٌ منَّا: حتى هذا الاستعمار أهون ممَّا كنَّا عليه من ظلم.

أرأيتم أيُّها الظالمون ما يقال عنكم اليوم بعد إذ غربت شمسكم التي لا تضيء ؟ غربت شمسكم فأصبح الأمريكان بديلاً مطلوباً عند بعض الناس.

إذا ظلمنا بعضنا فسيسلط الله علينا أعداءنا، إذا ظلم بعضنا بعضاً فالنتيجة احتلال واستعمار، وأنا أقول لكل الدول الأخرى:

إن بقينا على ذلك، فلئن كان اليوم دور العراق فغداً دور بلد آخر - وأرجو الله ألا يكون هذا الكلام صحيحاً - ما دمنا يظلم بعضنا بعضاً، ما دام الجار يظلم جاره، ما دام الشيخ يظلم زميله، ما دام الطالب يظلم مدرِّسه، ما دام الأستاذ يظلم طالبه، ما دام الواحد منَّا يظلم نفسه بالمعصية، ما دامت الفتاة تظلم جسمها بعرضه على الناس فستمتدُّ هذه النتيجة إلى دول أخرى، ما دام المسؤول منَّا يتربَّص بالناس الدوائر، وما دام المحكوم يتربَّص بالحاكم الدوائر فسنصل إلى نفس النتيجة.

لا تقولوا: هذا غير ممكن، من كان منَّا يصدق منذ عشر سنوات أو بعد عشرين سنة أنَّه سيُعيَّن في العراق حاكم مدني أمريكي ؟

من منَّا كان يصدِّق أن يهنئ الشعبَ العراقي الرئيسُ الأمريكي، ورئيس الوزراء الأمريكي، ووزير الدفاع الأمريكي، ووزير الخارجية الأمريكية ؟

من كان يصدق أن هؤلاء يهنئون شعبنا لأنه تحرر من الظلم ؟

لكن الذي يدرس سنن التاريخ لن يفاجأ، هذه المقدمات توصل إلى نفس النتيجة التي نعيشها، وأنا أقول لكم: إن الأمر يتتابع، فإذا ما بقينا على نفس الظلم فسيمتد أثر الظلم، وستمتد نتيجة الظلم إلى حيث يظلم بعضنا بعضاً.

– وأما الحديث الثاني، فيقول ﷺ:

(سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثِنتين ومنعني واحدةً؛ سألتُ ربِّي ألا يهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته ألا يُهلك أمتي بالغَرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمَنَعَنيها) (٤).

ولعل قائلاً يقول:

إذا كان النبيُّ ﷺ قد سأل ربَّه ألاَّ يجعل بأس الأمة فيما بينها فمُنع من هذا، إذن علينا أن نستسلم، فالله لم يستجب لنبيِّه في هذه القضية !

(٤) أخرجه مسلم، عن سعد رضي الله عنه، والسنة: القحط العامّ.

أقول:

إن للحديث تفسيراً وهو: سألتُ ربِّي ألا يجعل بأسَهم بينهم فَمَنَعَنِيها تفضُّلاً، وأعطانيها تكليفاً، أي جعل هذا الأمر في محور التكليف. ولذلك قال الله تعالى:

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ آل عمران/ ١٠٣.

وقال عليه وآله الصلاة والسلام: (وكونوا عبادَ الله إخواناً) (٥).

يا إخوة الإسلام، يا أبناء الإسلام، يا أبناء العالم الإسلامي: ما الأهداف التي وضعتموها أمامكم ؟ حددوا أهدافكم.

أين الأخوَّة ؟!

أين الأمل المستمَدُّ من كتاب الله والمستمدُّ من عملنا ؟!

أين نحن من القرآن الكريم، وأين القرآن منَّا ؟! أين نحن من آيات الله ومن سنة رسول الله ﷺ ؟!

أسئلة يجب أن نطرحها على أنفسنا باستمرار حتى نصل إلى جواب، والجواب بكل اختصار:

﴿ كنتم خيرَ أمَّة أخرجت للناس تأمرونَ بالمعروف وتنهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ آل عمران/ ١١٠.

---

(٥) متفق عليه. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نداءٌ للأمة في الأيام الصعبة

«... إنها صرخات ! وقد لا يكون ثمة من يستمع لها أو ينصت. ولكن حسْبُ الصارخ اعتقاد مفاده أن الكلمة الجادَة باقية غير فانية، وموثرة ولو بعد حين».

أيَّتها الأمة العربية، أيَّتها الأمة الإسلامية:

في هذه الأيام الصعبة، أيام الاعتداء على البلاد والعباد مِنْ قبل اليمينين المتطرفِّين في أمريكا وبريطانيا يدعمُهم ويحرِّضهم العدو الصهيوني الماكر، يستشعر المسلم والعربيُّ واجبَهما الدينيَّ والقومي تجاه إخوتهم المغدور بهم في العراق وفلسطين، فيسعى إلى ترجمة الشعور إلى واقع وسلوك.

١ - دعوةٌ إلى الشعوب من أجل اليقظة:

وأهم مفرزات الترجمة دعوةُ الشعوب الى اليقظة من سُباتها، وكذلك حثُّها على التمسك بمبادئها وثوابتها، وحضُّها على التفكير جدِّياً بالجهاد في سبيل الله لدفع الظلم عن المظلومين.

٢ - نداءٌ إلى الحكام من أجل حلٍّ لمشكلة التعامل مع الإسلام:

وثاني المفرزات نداءٌ ورجاءٌ إلى الحكَّام في الأمتين العربية

والإسلامية من أجل حَلٍّ جذري لمشكلة التعامل مع الإسلام، فقد آن الأوان لإظهار الولاء لله قلباً وقالباً، وإعادة الثقة بينهم وبين شعوبهم على أساسٍ مِنْ رحمةٍ أكيدة بهم، وإرادة خيرٍ عميم بهم.

ولئن بدا هذا الذي نقوله حلماً أو سُبحات خيالٍ، فليعذرنا الواقعيون المخالفون في واقعهم لما نقول ونطلب، لأننا إذ ننادي بهذا فنحن جادُّون في تبنّي تعاليم الخالق التي ما كانت في يوم من الأيام لتجافي الواقعَ المنشود المطلوب أو تخالفَه أو تنافيه، وما أعتقد أنها ستكون.

لسنا بحالمين، وما نبغي أن نصير كذلك، ولكنَّنا مجاهدون أو مشاريع مجاهدين، ووعينا يتكامل في هذه الكلمات، فالله جل شأنه قال:

﴿ والذينَ جَاهَدوا فينا لنَهْدينَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللّهَ لمعَ المحسنين ﴾ العنكبوت/ ٦٩.

فاللَهمَّ وفِّقنا لما يرضيك عنَّا، واجعلنا في الدنيا مفاتيح خير، وفي الآخرة هيِّئ لنا في جنة الشهداء مكاناً يليق برحمتك بعبادك وبحبك لأوليائك.

النصر قادمٌ، ولكن إلى مَن ؟

«... النصر لا يكفي لامتلاكه وحيازته ادّعاءُ أهليَته، وانتسابٌ مزعومٌ موهومٌ إلى المتمكنِّين منه في سالف الزمان».

لا تعجب إن قلّبتَ الصحفَ الإسلامية أو شاهدت القنوات الإسلامية الفضائية أو سمعت الإذاعات المتديِّنة من تكرار كلمة «النصر» على ألسنة الكُتّاب والمحاضرين والمنتدين، فقد غدا الأمر عادةً.

ولا تعجبْ من أن يحتكر المسلمون بشكل عام «نصر الله» ليجعلوه لهم وحدَهم دون غيرهم، فقد أضحى مثلُ هذا التصرُّف دَيْدَناً !

ويجب عليك ثالثاً ألا تعجب من امتيازات يقدِّمها المسلمون على سبيل الادِّعاء المحض، يطلبون على أساسها منَ اللّه النصرَ والغلبةَ والفتحَ ليكون لهم، وإلا فالمعادلة «الإنسانية الإلهية» - في رأيهم - مقلوبةٌ وهامدة من أحد طرفيها !

ولكن ألا يحقُّ لنا أن نسأل هؤلاء بعد هذا عن سبب عدم ذكرهم للخسارة والفشل والخذلان والذلّ وهم في بؤر هاتيكَ الصفات، غاطسون حتى النخاع !؟

يا مسلمون:

النصر لا يكفي لامتلاكه وحيازته ادِّعاءُ أهليَّته، وانتسابٌ مزعومٌ موهومٌ إلى المتمكِّنين منه في سالف الزمان.

والنصر لا يُعطى لمسترسل في الهوان غير معترف به، والنصر لا يُقدَّم إلى أناسٍ يطيشون إن أصابوه، بل ربما طاشوا إذ يصيبُهم وهمُه.

بل النصر آتٍ إلى مَنْ وعى سُنَن التاريخ وضبطَ بها حاضره.

والنصر قادمٌ إلى من استمسك فعلاً وقولاً بالعروة الوثقى، التي هي منهاجٌ منقذ حقاً، ربَّانيٌّ المصدر، ووحدة قوية صلبة بين أتباع هذا المنهج، وعمل دؤوب تظلِّله عناوين ثلاثة هي:

١ - *الرحمة الشاملة.*

٢ - *والفهم العميق للإنسان وعلاقاته.*

٣ - *والإتقان الذي لا ينتابه توقف وليس له انتهاء.*

النصر قادمٌ إلى أربابه، ويظهر أنَّنا الآن لسنا من أربابه، وإلى أن نصبح من أربابه آملُ أن نتكلَّم كثيراً عن الخسارة ومرارتها، والخذلان وبشاعته، والذلِّ وفظاعته، فعسى نكون في حديثنا عمَّا يسوؤنا نحثُّ أنفسَنا أكثر على التحقق العمليِّ الجادِّ بما ينفعنا:

﴿فعَسَى أنْ تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً﴾ النساء/١٩.

يا عرب أجيبونا وأغيثونا، وإلا ...

«... واكتبوا ملاحظةً بجانبنا: لقد توقَّف البحث عن أحياء تحت الأنقاض ...» وإلى اللقاء في يوم الخلود، وهناك إن سُئلنا عن رابطة بيننا وبينكم فالجواب: وتقطعت بيننا الأسباب، فسنتبرؤ منكم كما تبرأتم منَّا».

هكذا نادى شعب العراق إخوانَ أعراقهم، وقد تذكَّروهم في الأزمة القاسية التي حلَّت بفنائهم، وهكذا قالت بغداد عشيَّة السقوط في يد الأمريكان والحلفاء.

ولكنَّ العرب صمتوا فلم يجيبوا، وسكتوا فلم يتكلموا، وخجلوا فلم تتبس شفاههم كلمة، واحتاروا !

أيجيبون النداءَ باعتذار ذليل ؟

أم يسكتون فيُرضون العتاةَ الطغاة المحتلين ؟ فهم قد سمعوا منهم أنَّ أيَّة إجابة تحمل نجدةَ العربي أو مروءةَ المسلم تعني إرهاباً، فلا تكونوا يا بني يعرب إرهابيين في نظر الأمريكيين.

يا عرب. ويتابع العراقيون نداءهم:

إنَّ «صدام» رحل أو رُحِّلَ، ولكننا عوَّضناه بأناس كنَّا نعدهم من الأشرار، فهل أنتم واعون ؟

يا عرب:

لقد كنَّا مظلومين فها نحن أولاء اليوم مطعونون مُحْتَلَوْن، فهل أنتم عما حدث راضون ؟ أجيبونا.

ويصمت الجميع ولسان حالهم يقول:

يا أهلَ بغداد، على نفسها جنت براقش، وأنتم أدرى بشعاب دياركم، ولستم بأفضل من أهل مكة الذين يُقال عنهم: أهلُ مكة أدرى بشعابها !

يا عرب:

لقد غدونا نُذكر على ألسنتكم مع الفلسطينيين، فقد أصبحنا الدولة الثانية في القرن الحادي والعشرين في قائمة المستعمَرين، فبماذا - بالله عليكم - تفكرون ؟!

أتراكم تقدِّرون لأنفسكم متى سيدور الدور عليكم ؟ ومن منكم سيكون ثالثاً بعدنا ؟ ولهذا أنتم تائهون.

يا عرب:

نحن شعب العراق، والعراق عريقة في العروبة ومتجذرة في قِيَمها، وأنتم عربٌ مثلنا، والعربيُّ أولى بالعربيِّ في سرَّائه وضرَّائه، ودخولكم علينا زيارة، وأخذكم ما عندنا من ثروات «مَوانة»، ولا جُناح عليكم فيها، لكن من دخل علينا اليوم زيارتُه احتلالٌ وعداوة، وأَخْذُه الذي نملك نهبٌ وطمَعٌ، فتعالوا وخلصونا ولكم كلُّ ما لنا، والمهمُّ ألاَّ تحرمونا من إطلالتكم التي نجد فيها صُوَرنا وشخوصنا.

تعالوا يا عرب، فقد سبقكم إلينا «غارنر» الأمريكي ومواطنه

«بريمر»، وراح بعضٌ منا يكلمه بلغته الأمريكية، وربما غازله ووعده بسهرات حتى الصباح على ضفاف الرافدين، يعاقران فيها خمرة التاريخ ليجعلا منه نشوةً محرمة ونزوة طائشة ليس إلا، وليُسدلا الستار عليه، فما هو إلا سراب!

تعالوا يا عرب، فنحن على مثل جمر الغضا ننتظركم:

لقد أوذينا ومُزِّقنا، وغدونا محلَّ سخرية البيت الأبيض والبنتاغون وموضع تسليتهم.

أتصدقون ؟!

لقد فرح «بوش» لنا ولتحرُّرنا، وابتسم «رامسفيلد» لما وصلنا إليه من حرية ؟!

أتصدقون ؟!

لقد هنَّأنا «بلير»، وبارك لنا «باول»، ونأمل ألا تستعجلوا يا عرب في إغاثتنا لأننا مشغولون بتقبل التهاني من قبل الأمريكان والبريطانيين، فإذا جئتمونا فيما بعد فسنأتيكم - وهذا عهد - لنردَّ لكم الزيارة، ولكن بعد انتهاء مراسم التهنئة من قبل من يهنئنا الآن.

أوَ ما تعرفون بأنَّ أمريكا قررت أن تُفرِّح العالم على طريقتها، وبدأت بنا نحن العرب لأننا نفرح بسرعة وبأرخص أسعار سوق الذل والمهانة ؟!

ومعادلة التفريح على الطريقة الأمريكية:

«منكم يا عرب البترول والأرض والشعب والثروات والخيانة،

ومنا نحن الأمريكيين السياسة والقيادة إلى أن تصبحوا أرقاء من الطراز الأول في سوق نخاستنا الكبير»، فكونوا معنا قبل فاصل الحرب وبعده.

يا عرب - ويتابع أهل بغداد النداء - أجيبونا وإلا فسجِّلونا عندكم من المفقودين، واكتبوا ملاحظةً بجانبنا:

لقد توقَّف البحث عن أحياء تحت الأنقاض لانعدام القدرة على متابعة البحث، وإلى اللقاء في يوم الخلود، وهناك إن سُئلنا عن رابطة بيننا وبينكم فالجواب: «وتقطعت بيننا الأسباب، فسنتبرؤ منكم كما تبرأتم منَّا».

ولله الفاتحة - الآن - فقد أعلن وفاة العرب.

لا للتفجير... نعم للتعمير

«... فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المفجِّرون، لعلنا نفلح ونتقدَّم، ونقدِّم للإنسان أمناً وأماناً وراحة».

كِدْتُ أسَمِّي زمنَنا الراهن «عصرَ التفجير»، فما من يوم فيه إلا وخبر عن التفجير هنا وآخر هناك، وما من نشرة أخبار إلا ومساحة الحديث عن التفجيرات تفوق كل المساحات الأخرى، وما من موقع سياسي على الشبكة العالمية إلا وللتفجير حظ فيه، يومياً أو ساعياً أو لَحْظياً !

فما سرّ التفجير يا مفجِّرون ؟!

وما سبب التفجير يا خائفون ؟

وكلكم يا أيها العالم خائف، وفي أحسن أحواله مشروع خائف !

وتساءلت فقلت: هل الفجور أدّى إلى التفجير ؟

أم التنكيل أدّى إلى التفجير ؟ والتنكيل: ظلم وقهر وضغط وإساءة، و.... وسائر مرادفات هذه الكلمات.

ولا تعتب كثيراً على من فجّر، ولكن ابحثْ عن المسبِّب والآمر والمنظّر والمفلسف، وادرس الأسباب عندهم، وكذلك الدوافع، فهم أدرى بذلك: لأنهم يحرّكون ويدفعون ويأمرون ويَعدون ويتوعَّدون.

أما المنفّذون فهم – وأيم الحق – أغرار مغرَّرون، لا تتجاوز

آمالهم الموت تمزيقاً ليستجمع نفسه فيما بعد في نعيم مقيم، أو ذكرى خالدة لدى أمثاله من بسطاء الخليقة.

وإن عدنا إلى الدافعين فإنا متسائلون:

هل من سبيل إلى معرفتهم أولاً ؟

ومن ثم فهل نحن قادرون على فهم ما يفكرون به ؟

وثالثاً، فهل نستطيع نزع فتيل تفكيرهم التفجيري ليحلَّ محلَّه فتيل تفكير تعميري، لأنهم - وبالفعل - طاقات توجيهية كبيرة ؟!

ومن أجل ذلك: أناشد القائمين على الأمور والحكّام والمسؤولين أن لا يرفعوا شعار تفجير التفجير، ومحاربة الحرب، ومقاتلة المقاتلين !

بل قولوا لمن وراء عمليات التفجير: نحن بحاجة إليكم، إلى قدراتكم، فأتونا ولكم وعليكم الأمان، وبيننا وبينكم حوار ونقاش:

﴿ وإنَّا أو إيَّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ سبأ:٤٢ .

وإن كان التفجير الذي تفعلون طريقاً قويمة فنحن معكم مفجِّرون، وإلا فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المفجِّرون لعلنا نفلح ونتقدَّم، ونقدِّم للإنسان أمناً وأماناً وراحة، وسنلغي حينها كلمة التفجير من قاموسنا وسنستبدل بها - لغايات نبيلة - كلمات التعمير والتنوير والتثمير والتيسير:

﴿ يريد الله بكم اليُسْر ولا يريدُ بكم العُسْر ﴾ البقرة:١٨٥ .

تحديات تواجهنا

«... هل آن الأوان للبحث في فقه التعاون والتضامن والتوحد على أسس من عدل وإخاء ونُصح ؟!

.. وهل آن الأوان للقاء المسلمين على أرضيَّة الإيمان والمحبة والرحمة، تطبيقاً لمقولات الدِّين الحنيف ذاته ؟».

ما من شكٍّ في أنّ للخير مقوِّمات، وكذلك الشرّ، وما مِن ريب في أنّ الصراع قائم ومستمر بينهما.

ومقوِّمات الخير، حسب معطيات السماء ومقولات العقلاء: الرحمة، والعطاء النافع، والعدل، وسائر القيم التي تدور في فلك هاتيك المعاني.

أما مقومات الشر فهي: أضداد المعاني السابقة ومقابلاتها، من قسوة وضر وظلم، وما يدور في فلك هذه المعاني من صفات مشابهة ومقاربة.

والإسلام الذي عرفناه من مصادره، وعبر رجالاته الصادقين وعلى رأسهم سيدنا محمَّد ﷺ، يمثِّل الخيرَ خير تمثيل.

وها هو القرآن الكريم يفيض بالدعوة إلى مقومات الخير التي

ألمحنا إليه، والتحلي بها، وها هي الأحاديث النبوية ووقائع السيرة المرضية مليئة بما مُلئ به القرآن من خير.

أمّا الشرُّ، فما أظن أحداً يمكنه التنكّر لتمثيل الصهيونية العالمية وحليفتها الصليبية المتطرفة له، أي للشرِّ ولمقوماته.

وحَسبُنا أن نشير إلى أرض الواقع ليكون دليلاً حاسماً على صدق ما نقول؛ فالظلم والقسوة والضر ديدن الصهيونية حيثما حلّت، في فلسطين وفي سواها، وكذلك المتحالفون معها، أي مع الصهيونية.

ولا أدَلَّ أيضاً على صحة ما قلنا من أفعالٍ صدرت عنهم أسفرت عن إهانة شعب، وتشريد أبرياء، وانتهاك أعراض، وسواها، وما عَنَيْنا إلا العراق الجريح وأمثاله حاضراً وسابقاً.

لكننا ونحن نقول هذا، نتوجّه إلى المسلمين – ممثلي الخير كما يدّعون – لنؤكد دعوتهم إلى الالتزام الحق والواعي بالإسلام الحنيف، فالتحديات التي يواجهونها كثيرة، وأهمها:

أولاً- تحدي الفهم الخاطئ لهذا الدِّين:

وها نحن نرى فئتين من المسلمين أساءتا إلى الإسلام، وكانتا حُجَةً لأهل الشرِّ على الإسلام الخيّر.

- ***أما الفئة الأولى:***

فأولئك الذين قدَّموا الإسلام على أنه قتالٌ كلُّه، وعنفٌ كله، ودمٌ كله، يرهبون العدو والصديق والأخ والحليف.

- *والفئة الثانية:*

فالذين يميِّعون الإسلام إلى حدٍّ عدم الاعتراف به كينونةً فكرية وعقدية متماسكة، ويفصِّلونه قسراً وقهراً على الأشكال الدارجة والأهواء المتَّبعة، بغضٍّ النظر عن رعاية هذه الأشكال للإنسان أو عدم رعايتها له.

وفي مواجهة هذا التحدي الخطِرِ تبرز ضرورة طرح الإسلام الصافي الموثق النسبة إلى القرآن الكريم وإلى الأحاديث الشريفة.

... الإسلامِ الذي يدعو الإنسان إلى التحلي بالقيم الإنسانية الرفيعة من رحمة وعدل ورفق وقوة وفهم.

... الإسلامِ الذي ينادي بالحق يُعطى لصاحبه، مَن كان.

... الإسلامِ الذي يبني الأرض ويؤمِّن الإنسان، ويقوي الرابطة مع الديَّان.

إنه بكل اختصار إسلام الحضارة الملخَّص بقول الله عزَّ وجل:

﴿ إنَّ الله يأمر بالعَدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى وينهَى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ النحل: ٩٠.

ثانياً- أما التحدي الثاني فهو تحدٍّ فظيع، إنَّه التفرقة والمنازعة بين المسلمين:

فإلى متى سيظل المسلمون سادرين في خط التفرقة والتقاطع فيما بينهم ؟

وهل آن الأوان للبحث في فقه التعاون والتضامن والتوحد على

أسس من عدل وإخاء ونُصح ؟!

نعم. لقد آن الأوان لمصالحةٍ تحمل الأمان من المسلمين للمسلمين ولغير المسلمين.

... آن الأوان للقاء المسلمين على أرضيَّة الإيمان والمحبة والرحمة، تطبيقاً لمقولات الدِّين الحنيف ذاته.

... آن الأوان للوقوف بوعي وإيمان وامتثال أمام قول الله تعالى:

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ آل عمران: ١٠٣.

وقوله سبحانه:

﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقْوى ﴾ المائدة: ٢.

وقوله تعالى:

﴿ إنَّ الله يحبُّ الذين يُقاتلون في سَبيله صَفاً كأنَّهم بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ ﴾ الصف: ٤.

وقول النبيِّ ﷺ: (كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دَمهُ ومَالهُ وعِرضُه) [1].

ثالثاً- وأخيراً فنحن أمام تحدي الإعلام، وعصر الإعلام، وتسويق الإعلام:

أو ما نسميه في عرفنا: التقصير في التبليغ، إذ استبدلنا بتبليغ الناس وتوعيتهم التقتيلَ فيما بيننا، وإهدارَ دم بعضنا.

(١) أخرجه مسلم.

نعم. على دولنا الإسلامية، وعلى وزارات الإعلام فيها، المبادرةُ إلى توسيع رقعة التعريف بديننا كما هو، قبل أن يبادر غيرنا ليعرِّفَ بديننا كما يريد، وقبل أن يبادر أحد منّا ممن لا نقبل انتماءه لديننا بتعريف ديننا وَفق ما يهوى «إرهاباً أو تمييعاً».

أيتها الوزارات المختصة في ميادين الإعلام:

أنتم مسؤولون عن كل جاهل بالإسلام في أية بقعة من بقاع الدنيا كان، ما دمتم تملكون إمكانية الإبلاغ عبر القنوات والمجلات والشبكة العالمية.

حدِّثوا الناس عن إسلام الحضارة، وإسلام الإنسان، وإسلام الخير: وبكلِّ اللغات، وباستخدام جميع العلوم المستجدة، وحينها فالله جلّ شأنه معنا، وإلا فلن يكون الله مع الكسول الظالم المتفرّق المتهاون المتخاذل.

وصدق الله تعالى إذ قال:

﴿ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرضَ يَرثُها عباديَ الصَّالحون﴾ الأنبياء: ١٠٥.

قاسَمُونا فأعطَونا الحربَ واضطرابها
وأخذوا السَّلامَ واستقرارَه؛ فيا غباءَنا إن رضينا !

«... والكلمة الأخيرة هنا: سئمنا الحروبَ ووهمَ الحروب وآثار الحروب، وتُقنا للسِّلم والسَّلام والأمن والأمان والتحقق بالمعنى الحق للإسلام».

الحياةُ قسمان غير متكافئين: حربٌ طارئة عارضة، وسلامٌ ثابت وأصيل.

وقمينٌ بالإنسان أن يعطي مِنْ جُهده ووقته وعمله وأمله القسمَ الأوفر للسَّلام، وأن يدَّخر بعضاً من قدراته ومُكناته للحرب.

لكننا – وفي لحظة غفلة ووهم – عَكَسْنا الشأنَ فجعلنا المساحةَ الأكبر منَّا للحرب، وقَصَرنا السَّلام على المساحة الأصغر.

والذي زاد الطينَ بلَّة أنَّ الغربَ المقابل لنا، بكلِّ أطيافه، شجَّعَنا على هذا الذي فعلنا، بل ومنحَنا الأوسمةَ في مجال الحرب والقتال، وأبقَى أوسمة السَّلام لنفسه، يعلِّقها على صدره وصدر الكون، حَجره وشجرِه وأرضه وسمائه.

وابتدأ التاريخُ الذي لا أحبُّ، فنحن الأبطال نقتل ونضرب ونستشهد ونموت... ويا غرب هات ما عندك من أسلحة وعتاد، وخذ مقابله ثرواتنا الخام وما تحتوي عليه بلادنا من خيرات.

والمهمُّ أن يحكمنا صاحب البزة العسكرية، نرفع صورَه المتنوعة المتعددة بلباسه الحربي، مع النياشين تارةً وبدونها تارةً أخرى، وببذلة الميدان مرة ثالثة، أو زدْ على ذلك ولبِّس القائدَ ما شئت من فنون السلاح تلبيساً.

ولا بدَّ للحاكم في بلاد العرب والمسلمين اليوم من رتبة عسكرية ومكانة حربية، وإلا فلن يُذكَر في سجل الأبطال ولوحة الميامين، وهناك في الغرب أو في الجهة المقابلة لعالمنا العربي والإسلامي - حيث يُصنع السلاح وتخترع الآلات الحربية - لا ارتداءَ للباس العسكري من قبل الحكام، ولا جنودَ تُطعِّم محافلَ الناس المختلفة، الاجتماعية منها والعلمية، بل ولا تفاخرَ بالمعارك ولا بالوقائع القتالية.

قلت هذا منبِّهاً أمتي العربية، و من ثمَّ الإسلامية، إلى ضرورة وعي الحياة في أصلها، فهي - أعني الحياة - لا تُسجل في نيِّرات صحائفها إلا أبطالَ السلام والأمان، ولا تعترف إلا على من طمأنَ الإنسان وأمَّنَه على حريته وعدالته وقيمه وسكَنه وأهله وعشيرته وحجره وشجره، أمامَ من أشعل الحرب وعاشها هاجساً وجعلها كذلك لدى أمة ٍما، فهو عن تاريخ البناء معزول.

فيا أمتي:

أفيقي من وهم ٍسَدَرْتِ فيه قروناً طويلة، وعودي إلى رحاب السَّلام، وخذي فيه موقعاً، واعملي على منافسة أصحاب المواقع فيه عبر الاستقرار الاقتصادي والعلمي والسياسي.

حوِّلي القيم إلى مؤسسات، وإيَّاك أن تفردي بالتقديس شخصاً، وأن تمنحي هذا الشخص كلَّ مفاتيح الحل والعقد، فيكون مصيرك مرتبطاً به وجوداً وعدماً، خطأً وصواباً، ذلاً وعزاً، فما هكذا تورد يا سعد الإبل، ولا هكذا تُبنى المجتمعات، فالمجتمعات ليست مجتمعات إلا بالمؤسسة والقانون الشامل والقضاء العادل والتعليم الواعي والإمام الراعي !

نعم يا أمَّتي، أو يا أمَّتَيَّ:

الحربُ بدائيةٌ والسَّلام ارتقاء، والحرب شرٌّ حتى ولو كانت فيها مسحةُ خير أحياناً، لكنَّ الصُّلح والسَّلام خيرٌ كله، ولا يشوبه شائبة شرّ.

نريد يا أبناء وطني بطولات في مجال السَّلام، ومجالُ السَّلام صناعةٌ وزراعةٌ وتجارة وبناء ورفاهية وسرور وأمان.

أمَّا الحرب فليس من آثار لها سوى الإنهاك والتعب والاضطراب والرُّعب وإعادة العمل من جديد، كالتي نقضت غزلَها من بعد قوة أنكاثاً.

والكلمة الأخيرة هنا:

سئمنا الحروبَ ووهمَ الحروب وآثار الحروب، وتُقنا للسِّلم والسَّلام والأمن والأمان والتحقق بالمعنى الحق للإسلام. وصدق الله تعالى إذ قال:

﴿ كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللهُ ويَسعَونَ في الأرض فساداً واللهُ لايحبُّ المفسدين ﴾ المائدة: ٦٤.

وحسبُنا أن نؤكد بلغة الإحصاء أن القرآن الكريم ذكر الحرب والجهاد والقتال واشتقاقاتها المتنوعة إيجاباً وسلباً حوالي /٢٢٥/ مرة، وذكر السِّلم والأمن والأمان والإيمان والإسلام آلاف المرات، فهل من مدَّكر ؟!

ولعل قائلاً يتردَّى لَبُوس سائل يقول:

وكيف السبيل لاسترجاع ما فقدناه من أرض وبلاد وثروات ؟

فأجيب:

بالجهل ضَيَّعتمْ ما ضَيَّعتم، فما عليكم إلا العلم حتى تعيدوا ما فقدتم، فادخلوا معركة العلم تسترجعوا ما لكم، وترثوا حتى ما هو لغيركم ظاهراً، إن كنتم متفوقين على ذاك الغير بالعلم والمعرفة والفكر والحركة السُّنَنية الجَادَّة، تطبيقاً لقول الله تعالى:

﴿ولقد كتَبنا في الزَّبور من بعد الذِّكر أنَّ الأرضَ يرثُها عبادي الصَّالحون﴾ الأنبياء: ١٠٥.

وقد أكَّد جلُّ المفسرين على أن الصالحين في هذه الآية هم أولئك العالمون العاملون، الخبيرون الفاهمون، فهم بهذه الصفات يغدون صالحين لعمارتها، فهيهات أن يورث اللهُ الأرضَ أو أرضاً مَن يعبث بها ولا يصلحها:

﴿فاللهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحم الرَّحمين﴾ يوسف: ٦٤.

والسَّلام.

الإسلام والحرب

«فيا كلَّ الناس في كلِّ مكان: سارعوا إلى سلام ينبثق من مبادئكم وأمان تُفرزه أديانكم، قبل أن يأتي يوم يصدُق فيه مَن يبقى مِنَ الناس بعد الحرب أن لا عيش للإنسان إلا بالاعتداء».

عطفت الحربَ على الإسلام في العنوان لأنَّ العطف يقتضي التغاير، فليس ثمة تجانسٌ بين الإسلام وبين الحرب، ومن قال إن الإسلام يقرُّ بالحرب أو يبتغيها فهو عن روح الإسلام في غفلة، فما جاء الإسلام إلا ليعمِّمَ السَّلامَ في مختلف الاتجاهات والمسارات، ودعا المؤمنين بالسَّلام المطلق – الذي هو الله – للدخول في ساحة السَّلام كافةً ومن دون استثناء:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتَّبعوا خُطوات الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين﴾ البقرة: ٢٠٨.

ووعد أتباعه الصادقين المخلصين بنعيم دار السَّلام في الآخرة جزاءً على نشرهم الإسلام في الأرض.

وإني على يقين أن الحضارات تُعتبر إيجاباً بسعة المسافات التي تنشر فيها السَّلام، واتساع المسافات التي تقلص عنها الحربَ وتدحرها منها، وإنهاءُ الحرب صلحٌ، والصلح هو الخير والأفضل،

كما أعلن الدين الحنيف في كتابه الكريم:

﴿ فلا جُناح عليهما أنْ يُصلحا بينَهما صُلحاً والصُّلح خيرٌ ﴾ النساء: ١٢٨.

وكلما أوقد أهلُ الفتنة نارَ الحرب فاللّهُ سيطفئها رغماً عنهم، شريطة أن يكون روّاد السَّلام على أهبة الاستعداد لممارسة بسط رداء السِّلم والسَّلام عبر القول المكين والفعل المتين.

ولئن كانت أمريكا اليوم تبغي إيقاد جذوة الحرب فإنّا لها قائلون:

ما هكذا تورد يا سعد الإبل، ولا هكذا يعمل المتحضرون، ولا تُداوى احتمالات حرب شاملة بحرب أكيدة وعدوان لا يميّز بين حامل السلاح ورافضه.

ونتابع القول لها متسائلين:

هل عدلتِ عن الحضارة ؟!

وهل سئمت قيادةً بالعلم والسَّلام حتى هممت بتغيير مقومات السِّيادة الجادَّة لتجعلي مكانها مقومات سيادةِ شراسةٍ وغطرسة.

كنا نتمنى - نحن الذين ننتمي لدين الإسلام أنَّى كان - أن تفكري في تعميق رسالة الأمان، وتثبيت صمام ضمانِ سلامِ الإنسان.

وكنا نأمل لو أنك ردعتِ المعتدين من الصهاينة المجرمين في فلسطين، لا لأنهم يهود - وحاشا - ولكن لأنهم من السُّعاة لإشعال نار الفتنة، وما كلامي عنهم بخافٍ عن دائرة اطلاعاتك التي لا يخفى عليها شيء كما عَهدناها !

فيا كلَّ الناس في كلِّ مكان:

سارعوا إلى سلام ينبثق من مبادئكم وأمان تُفرزه أديانكم، قبل أن يأتي يوم يصدِّق فيه مَن يبقى منَ الناس بعد الحرب أن لا عيش للإنسان إلا بالاعتداء، ولا شريعةَ تصلح للأرض إلا شريعة الغاب، وحينها:

عوى الذئب فاستأنست إذ عوَى
وصوَّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

لا للحرب المفتوحة، ولكن...

«أعداءُ الإنسانية حرّاقون سفّاكون مفسدون،

ونحن نطفئ ونحقن الدم ونصلح في الأرض».

ما كنّا في يوم من الأيام لنبغيَ حرباً، فضلاً عن حرب مفتوحة. بل منشودنا في كل آنٍ ومكان سلامٌ مُشرَعُ الأبواب أمام الناس كافّة؛ سلامٌ مؤسس على عدالة واحترام متبادل، لا يشوبه ظلم، ولا يعكّر صَفوَه عدوان.

لكنَّ المشكلة أن أناساً – وهم من حيث الظاهر أناسٌ، لكنَّهم في حقيقتهم المعنوية وحوشٌ – أرادوها معَنَا حرباً مفتوحة وقتالاً شرساً، فها نحن أولاء نعلنها حرباً غير مفتوحة، لأننا تعلّمنا ألا نخرجَ عن تعاليمنا ومبادئنا إذا ما استُجرِرنا، فمحمّد ﷺ يقول: **(لا تكونوا إمَّعة. تقولون: إن أحسَنَ الناسُ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلَمنا. ولكن وطّنوا أنفسكم: إن أحسنَ الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا)** [1].

وبناء على هذا:

لا للحرب المفتوحة، وإن أرادها المعتدي وطلبَها وسلكَ طريقها،

---

(١) أخرجه الترمذي.

وجَهِدَ في ضخِّ أسبابها ودواعيها.

لا ... وألف لا لحريق يشبُّ ونارٍ تستعر هنا وهناك، لأننا أيضاً مدعوُّون من قِبل القرآن الكريم إلى إطفاء نار الحرب التي يوقدها الظالمون، وليس إلى تسعيرها وإيقادها.

قال تعالى:

﴿ كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللهُ ويَسعَونَ في الأرض فساداً واللهُ لايحبُّ المفسدين ﴾ المائدة: ٦٤.

أعداءُ الإنسانية حرَّاقون سفَّاكون مفسدون، ونحن نطفئ ونحقن الدم ونصلح في الأرض.

تلك هي رسالتنا، رسالة الإسلام العظيم، ورسالة العروبة التي استحقت بخصائصها النبيلة من كرم وشهامة ورحمة أن تكون الحاملَ الأساس والأول لهذا الدِّين الحنيف، دين الرحمة والأمان والعطاء.

ولن نستجيب أبداً لإرادات العدو المفسدة الغاشمة. فإن قالوا: هيَّا إلى حرب مفتوحة. قلنا لهم: لا ... بل هيَّا إلى سلام مفتوح عادل.

حتى إذا جنحوا للسلام المذكور جنَحْنا له.

ولكن...

إن أبَوا ... فسنرد على اعتدائهم، وسنقاوم بكل ما أوتينا من قوة. فالأصلُ - يا ناس - الخيرُ يربو في ربوع السَّلام، والإنسان يَسْعَد في رياض العدل، والحقُّ يُبتغَى في ساحات الصدق، والأمانُ

ينتشر رايةً على كوكبنا الذي غدا يبدو أحمرَ كريهاً، وقد أراده اللّه أخضر جميلاً:

﴿أتستَبدلونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ﴾ البقرة ٦١ .

إذن اهبطوا منه واتركوه لمن يُحسن إليه ويرعاه !

عدو الإنسان

«فما بال الإنسان العاقل أو السَّاعي إلى الاتصاف بالعقل والإنسانية لا يعاقب عدوَّ الإنسان، ولا يتخذ حياله إجراءات الردع ؟!».

كلنا يعلم أن عدوَّ الإنسان يسعى إلى تخريبه وتشويهه كاملاً بكل الوسائل والأدوات، وهو في سعيه هذا لا يفرق بين إنسان وإنسان، فالإنسان أينما كان مُبتغاه وموضوعه في التخريب والتشويه. ولئن سألته عن دافعه لقال: إرواء نزوات الشر وإشباعها.

وكان الأولى به أن يَجِدَّ في إمتاع رغبات الخير، لأن الإنسان إنما خُلق ليعمِّق إنسانيته ويزيدها، لا ليمحوَها ويبيدها.

ولعل القارئ النابه يستحضر بعد قراءة هذه الأسطر المثال الحيَّ على عدو الإنسان في عصرنا الراهن، وأظنُّ أن جُلَّ العقلاء في العالم يتفقون على أنه:

الصهيوني المعتدي على أرض ليست له، والمرتكبُ بحق أبرياء أبشعَ الجرائم، والمنفِّذُ في آمنين أقسى المجازر وأعتاها.

والبرهان على ما نقول جَليٌّ بَيِّن، لا يشكو أدنى غموض أو ارتياب.

وإذا كان الأمر كذلك:

فما بال الإنسان العاقل أو السَّاعي إلى الاتصاف بالعقل والإنسانية لا يعاقب عدوَّ الإنسان، ولا يتخذ حياله إجراءات الردع ؟!

ما بال الأمم المتحدة - راعيةِ حقوق الإنسان - لا تصرخ في وجه عدو الإنسان صرخةَ قمع ؟!

وما بال الولايات المتحدة زعيمة العالم تقفُ مع عدو الإنسان لتشكّل وإياه حلفاً ظالماً ؟!

ما بالها وقعت في شباكه فغدت أسيرةَ أهوائه ونزواته وطيشه ؟!

وما بال أمتي لا تُجمع أمرَها لتأتي على هذا العدو فتجعله ركاماً ؟!

عهدنا بالإنسان أنه قوي أمام عدوِّه يصارعه ويستمر في صراعه إلى أن يرعوي العدو أو يَبيد.

فيا عدو الإنسان:

إظلم ما شئت. فلئن كنت تُبعد عنك وعنَّا يوم الارعواء عن الغيّ، فإننا بعَون السماء لنستعجل يوم إبادتك، وقريب إن شاء الله ذلك اليوم.

بين الإرهاب المرفوض والإرهاب المفروض

«... فالإرهاب المرفوض هو: كلُّ ما يهدد الإنسان ويقلقه ويزعجه ويخيفه. والبادئ أظلم».

إذا كان الإرهاب - بحسب دلالة اللغة اليوم - يعني نقيض الأمن والأمان، فإننا - ومن منطلق مصادر شرعنا - نرفض الإرهابَ وندينه ونشجبه.

غير أننا - وفي الوقت نفسه - نسعى إلى توحيد مفردات التعريف وأبعادها بين الشاجبين والرافضين.

نقول لهؤلاء جميعاً ونحن منهم، أي نقول لأنفسنا ولغيرنا:

فلنَصدُق في التوجُّه المعرفي للوصول إلى معلومة جادَّة في هذا الشأن، ومن ثمَّ من أجل فحص المعلومة هذه فلنتبادل الأدوار في مساحة الحياة، فيتخيَّل ويتصور كلٌّ منَّا نفسَه مكانَ الآخر.

وعليه:

فهل يقبل الأحكام التي وجَّهها للآخر على نفسه إذا صار محلَّه، أم إن الأمر سيختلف ؟

فإن قَبلها فالمعلومة جادَّة، وإن اختلف فلنُعدِ النظر في التعريف.

يا ناس:

المشكلة في أننا قد نكون إرهابيين في اجتماعاتنا التي نتداعى

إليها لمحاربة الإرهاب، وذلك حين يفرض بعضُنا على بعض مفاهيمَه ومصطلحاته.

وقد نكون إرهابيين في بيوتنا حين يسعى الأبُ إلى فرض احترامه على ابنه فرضاً وبالقوة، وهكذا...

وإذا كنتم تريدون إنهاء الإرهاب فأنهوه من أنفسكم على أنفسكم، ومن أنفسكم على أبنائكم، ومن أنفسكم على تلاميذكم، ومن أنفسكم على رعاياكم، ومن أنفسكم على شعوبكم.

وادرسوا الإرهابيَّ ودوافعَه وأسباب إرهابه، فلربما كنتم له دافعاً وما تشعرون، أو تشعرون؛ فالمصيبة عندها أعظم.

أمِّنوا الناس بالصِّدق ولا تُقلقوهم بالكذب، وطمئنوهم بالصراحة ولا تجعلوهم مضطربين بالمخاتلة، ولا تكونوا كخائني بني إسرائيل الذين يَسعون إلى أمنهم على حساب أمن الآخرين، ويقولون:

﴿ليس علينا في الأمِّيين سبيلٌ﴾ آل عمران: ٧٥.

وفرِّقوا بكل قوة بين الإرهاب والدفاع المشروع عن النفس، وقد يسمى «مقاومة».

وبعد هذا كله، فإمَّا لقاءٌ ينفع الإنسانَ، وإمَّا فراق ينفع الإنسانَ، فنَفعُ الإنسان وأمانهُ هو في النهاية مطلوبنا ومرادنا.

وأخيراً، فالإرهاب المرفوض هو:

كلُّ ما يهدد الإنسان ويقلقه ويزعجه ويخيفه. والبادئ أظلم.

ولا أمان إلا بالإيمان الحق بصدق وإخلاص.

فهل نحن منتهون ؟!

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها

فماذا بعد ؟!

«... سارعوا إلى التماهي مع كل المسلمين، ولا تفرِّقوا بين أحد منهم، وقولوا للأمة كلها: لنلتقِ دون ألقاب. أفلا يكفينا الإسلام ؟!».

سأحيّي الصمودَ أولاً، وسأحيي الجهاد والمجاهدين، وسأحيي لبنان كلَّ لبنان.

وأمّا حزب الله بشكل خاص فأحيّيه وأناشده؛ وتحيتي له ملؤها التقدير والثناء؛ ومناشدتي له أن يطرح الفتح بعد النصر.

والفتحُ منهاجُ السلام المستمدُ من الإسلام كلِّ الإسلام، فاحرص يا حزب الله على جمع الأمة في ساحة الفكر الموحِّد الموحَّد كما جمعتَها في ساحة الميدان القتالي المقاوم.

واسعَ يا حزب الله إلى اتخاذ الإسلام الأوسع رايةً تدعو إلى الانضواء تحتها، فلا ألقابَ ولا أوصاف ولا مذهبية ذات عصبية ولا طائفية، بل إسلامٌ محوره القرآن الكريم وشخصية النبيِّ محمَّد ﷺ.

ويمكنني الآن الحديث عن منهج أهل البيت وتعميمه ونشره، لأنه منهجُ جمعٍ ورحمة واستيعاب وتحمُّل وأمان ورعاية واعتراف

وقبول ومسامحة.

فلتعمل يا حزب الله على ترسيخ هذه المصطلحات عناوينَ لمسيرة المعركة الفكرية والمعرفية التي بدأتَها قبل الانتصار، وستباشرها بقوة عقب الانتصار.

أعود فأؤكد بأن نصراً تحققَ إذ وقفت الأمة مع المقاومة تدعمها وتحيِّيها وتشجعها وتعاونها وتساعدها، فلا تُذهبوا آثار ذاك النصر الخيِّرةَ بعودةٍ إلى مفردات الفئة والمذهب والطائفة.

بُويعتم مقاومين في ساح المعركة الحربية، فاعملوا على أن تُبايَعوا روَّاداً في تأصيل فقه الوحدة والاعتصام بحبل الله جميعاً والتضامن والتباذل، فأنتم أقدرُ من سواكم على ذلك، لأنكم في الحرب ما ندَّت من أفواهكم كلمةٌ تجافي السَّعة والأخوَّة والاستيعاب واللقاء والاجتماع.

فاللهَ اللهَ يا حزب الله. وكلنا من حزب الله:

سارعوا إلى التماهي مع كل المسلمين، ولا تفرِّقوا بين أحد منهم، وقولوا للأمة كلها:

لنلتقِ دون ألقاب. أفلا يكفينا الإسلام ؟!

وتابعوا القولَ أيضاً:

العروبةُ شخصيتنا، والإسلام هويَّتنا، وأوطاننا أمانة مقدَّسة في أعناقنا، لا نفرِّط بحبة تراب من أرضها، والكعبةُ قبلتنا، ومكةُ المكرمة منطلقُ دعوتنا الجغرافي، والمدينة المنورة مسكن ضميرنا، والقدسُ عاصمة دولتنا العادلة الإنسانية المقاومة ومركزها.

لستم يا حزبَ الله حزباً بالمعنى المشهور اليوم، بل أنتم أفرادُ أمة نمَا وعيٌ جمعٍ شملِ الأمة في صدوركم، فجاهدتم لتحقيق ما وَعيتم، وضحَّيتم من أجل ذلك بالنفس والنفيس، والإنسانُ الواعي أمراً يستشعر ضرورةَ التضحية من أجل تحقيق ذلك الأمر أكثر من سواه.

يا حزب الله، أيها العاملون حتى يرضى الله:

أناشدكم بحق الله ورسوله وأهل بيته وأصحابه والصالحين من الأمة، وبحزب الله الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، أن نؤسس معاً لإسلام مجدَّد وَفق هدي أصلَيْه ومَصْدَريه: القرآن والسُّنة، ووَفق سلوك أهل العباء والراشدين من الصحابة. ولنَدْعُ هذا الإسلام: الإسلام الصافي؛ إسلام الإسلام الحق.

ولن نرفع من أمامنا قولَ الله عزَّ وجلَّ:

﴿ادْعُ إلى سَبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسَنة﴾ النحل: ١٢٥.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هذه سَبيلي أدعو إلى الله على بَصيرة أنا ومن اتبَعني﴾ يوسف: ١٠٨.

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ الأنبياء: ١٠٧.

وقوله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قُوة ومن رباط الخَيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾ الأنفال: ٦٠.

وليس ثمةَ مسلم هو عدوّنا أو عدوٌّ الله، وحاشا.

وقول النبيِّ ﷺ: (إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة

يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) [1]. والمخاطَب كلٌّ المسلمين.

وقوله ﷺ أيضاً: (ترى المؤمنينَ في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً تداعَى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى) [2].

السَّلام عليكم أيها المسلمون جميعاً.

والسَّلام عليكم أيها العرب جميعاً.

والسَّلام عليكم يا أبناء الوطن المسلم والعربي جميعاً.

والسَّلام عليكم يا مقاومون جميعاً، ولا سيما مقاومو فلسطين ولبنان.

والسَّلام عليكم يا حزب الله. وحزبُ الله كل أولئك السابق ذكرهم جميعاً.

والسَّلام عليكم يا حزبَ الله، تلك الجماعة التي تخاف الله ولا تخاف سواه.

والسَّلام عليكم يا سماحة السيد حسن نصر الله.

وإنا وإيَّاكم لعلى هدى بفضل الله وكرم الله.

والسَّلام عليَّ إذ أحببتكم في الله.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

المقاومة: إلى متى ؟!

«المقاومة حيث الظلم يجب أن تكون...
فلا تلوموا مَن قاومَ بل وبِّخوا مَن ظلم، ولائمُ المقاوم منافقٌ، ولائمُ الظالم ومحاربُ ظلمه مقاوم».

المقاومة في كل مكان من أمكنة العالم مشروعة، لأنها تعني في حقيقتها ردَّ المعتدي ودفعَ الظالم، ولا فرق في هذا بين مقاوم مسلم وغير مسلم، ومقاوم عربي وغير عربي.

وتتحدد وسيلة المقاومة بالمُكنة والاستطاعة، وليس ثمَّةَ وسيلةٌ ممنوعة تجاه دحر الآثم والظالم والباغي.

وحين نُشخِّص فنتحدث عن المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية والمقاومة العراقية والمقاومة السورية وهكذا ... نؤكد على مشروعية هذه المقاومات، فهي تردُّ المعتدي من صهيوني وأمريكي عن أرضها وترابها وبلادها، وتدفع الظالم عن عِرضها ومستقبلها وحاضرها.

وعلى الذين يبغون إنهاء المقاومة أن يتوجهوا إلى علَّة وجودها فيقضوا عليها، لتنتهي بدورها تلقائياً.

وها نحن أولاء نطالب المنظمة الدولية والدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، بالتعرف على حقيقة الأمر

والواقع فيما يتعلق بفلسطين ولبنان والعراق وسورية وسواها، فسيجدون - إن كانوا موضوعيين - أن هذه الدول مظلومة مَبغيٌّ عليها، وحينها نناشدهم مقاومةَ الظالم والباغي، وإلا فهم شركاء في الظلم والبغي وساء ما يفعلون.

وأمَّا ما يخصُّنا ويَعنينا: فسنبقى نشجِّع المقاومة ونشدُّ عَضُدها ونُعينها ونساعدها وندعمها: فالمقاومة منهجٌ غايتُه السَّلامُ والأمان، في مقابل الإرهاب والعنصرية والنازية والعنف.

وبعبارة أخرى:

المقاومة عادلة؛ أي: تَتشُد العدلَ والتحقق به بطريق العدل؛ أما المفردات المقابلة المذكورة آنفاً فهي وليدة الظلم والبغي والجور والحيف.

وعلى هذا:

فمعارضة الدولة الظالمة مقاومةٌ.

والولد المتمرِّد على الوالد الغاشم مُقاوِمٌ.

والزوجةُ الرافضةُ سيطرةَ الزوجِ العنيفةَ الباغيةَ مقاومةٌ.

إلى أن تصل إلى المثقف الذي لا ينافق للسلطة ولا يمالئها، بل يَجِدُّ في تعميق وعيِ ضرورة العدل، وبسطِه على كل المرافق والمفاصل، فهو مقاوم.

وبكلمة مختصرة، أو إن شئتَ سمِّها معادلة:

المقاومة حيث الظلم يجب أن تكون.

والمقاومة لبوس المظلوم إلى أن يحلَّ العدل والإنصاف.

فلا تلوموا مَن قاومَ بل وبِّخوا مَن ظلم، ولائمُ المقاومِ منافقٌ، ولائمُ الظالمِ ومحاربُ ظلمه مقاوم.

يا ناس، يا أمم، يا شعوب:

لبنان مظلومة وفلسطين مظلومة وسورية مظلومة والعراق مظلومة و... وربما تصرف المظلوم أحياناً تصرفاً غير مدروس فلا تعتبوا عليه، بل العتب واللوم والتقريع والتوبيخ، وحتى اللعن، على مَنْ ظلم، وعلى من أفسد، وعلى من اعتدى.

وثقوا يا أمم الأرض أن المقاومة مستمرة وباقية، وقد تضعف، ولكنها - أبداً - لن تموت، ولن تموت، ولن تموت، ما دام الظالم سادراً.

فهل من مجيب ؟!

وهل من سامع ؟!

وهل من عاقل ؟!

أليس فيكم رجل رشيد ؟!

وإنا لذيَّاك اليوم الذي سيندحر فيه الطغيان والعدو لمنتظرون...

وآنئذ لا مقاومة، بل منافسة على خيرٍ ينفع البلاد والعباد:

﴿ يا أيُها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الحجرات: ١٣.

والسَّلام.

لبنان يا لبنان

«لا مفرّق يا لبنان بينك وبيننا إلا ما حرَّم الله، وقد حرم اللهُ: الظلم والبغيَ والتنازع والقتل والنهب والسبَّ والشتمَ وكلَّ الرذائل».

لم أدْرِ قبلَ الكتابة أني سأكتب عن لبنان هذا الذي كتبتُ، لكنني كتبت ... فاسمع «لبنانُ» مني أعرض عليك:

نحن يا لبنان في الجغرافيا والتاريخ أَخَوان، فلا هجران.

ونحن يا لبنان في مواجهة العدو كالبُنيان، وها نحن مستمران.

ونحن يا لبنان في رفضِ الظلم والقهر متَّفقان، وإنا لمتعاونان.

ونحن يا لبنان في البحث عن الاستقلال والسيادة والحرية جادَّان متضامنان.

ونحن يا لبنان على إسقاط الديكتاتوريات الغاشمة عاملان مثابران.

ونحن يا لبنان في إرادة الخير والازدهار لشَعْبَيْنا وأرضنا صادقان.

ونحن يا لبنان من كل نصيحةٍ غربيةٍ مشوبةٍ بموافقة بني صهيون حَذِران.

ونحن يا لبنان جنباً إلى جنبٍ سنبقى دائماً وأبداً، فما نحن إلا

جاران متوادَّان.

ونحن يا لبنان لا نبغي طاعة حكومَتينا طاعةً عمياء، بل نحن لهما بالمعروف ناقدان، ناصحان، آمران.

ونحن يا لبنان من رَحِمٍ واحدة وُلدنا، وربما... بل قد تَأكَّد لديَّ أنَّا منذ القديم توأمان.

لا مفرق يا لبنان بينك وبيننا إلا ما حرَّم الله، وقد حرم اللهُ: الظلمَ والبغيَ والتنازعَ والقتلَ والنهبَ والسبَّ والشتمَ وكلَّ الرذائلِ.

فهل نحن يا لبنان عن كل هذا منتهيان، وعلى التعاون والتضامن والودادِ ومواجهةِ المؤامرات المُفسدةِ مصمِّمان؟!

هذا ما نرجوه ونأمَله، والله يتولانا ما دمنا نتولى بعضنا، وإلا فلا بارك الله في أخوين لا يتحابَّان وإذ هما يتنازعان:

﴿ولا تنازعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحكم﴾ الأنفال: ٤٦.

اللهمَّ أمنًا وآمنًا في أوطاننا

«وأفظعُ غاية يسعى عدوُّنا اللدود إلى إنجازها: زعزعةٌ فيما بيننا، وفوضى تحكم معاشَنا وحياتنا، وقسوةٌ من بعضنا تجاه بعضنا....».

سُئِلت أكثر من مرة عن أعظم نعمة ينشُدها الإنسان، فقلت على الفور: إنها الأمان.

وإن شئتَ حذف الألف فهي عندئذ الأمن، وإذ نجمعُهما معاً نقول: الأمن والأمان.

وما دمنا قد ذكرنا الكلمتين فلنجعل الأولى «الأمن» للداخل والقلب، ولنجعل الثانية «الأمان» للظاهر والجسد والحركة.

وما سائر النِّعم إلا تابعات لهاتين، وأسماء أخرى لهما. فهل تصدِّقون ؟!

تعالَوا إلى الصِّحة والعافية لنراهما في النهاية أماناً للجسد !

وكذلك إذ نأتي على ذكر نعمة «الإيمان» فما هي إلا الأمن والاطمئنان للداخل والقلب !

فإن طلبتَ إليَّ الصِّلة بين المال والولد، وهما نعمتان، وبين الأمن والأمان، قلتُ: وهل يُطلب المال ويُحرَص على الولد إلا من أجل أمن الإنسان وأمانه ؟ فالمال في خدمة الجسد ليبقى في

أمان، والولد في خدمة القلب لتقرَّ عينٌ من أنجب ومن وَلد.

ولا تحدِّثني يا هذا عمًّا يقابل الأمن والأمان، فالحديث عنها بحدٍّ ذاته يؤلمني، ومَنْ منَ الناس الأسوياء منْ يرغب في ذكر الخوف والاضطراب والرعب؟

فاللهمَّ أبعد عنًّا ما ينافي الأمن والأمان، وقرِّب منًّا وإلينا ما يجلب الاستقرار والاطمئنان.

وما كتبتُ هذا إلا لأطلبَ إلى الصَّالحين من بني وطني ألا ينسَوا حين يدعون ربَّهم في صلواتهم وخلواتهم دعاءً كنت أسمعُه من شيوخنا ومعلمينا وهم على المنابر وفي القنوت: (اللهم آمِّنا وأمِّنا في أوطاننا).

فالوضع خطير والعدو شرسٌ وحقير، وكثيرٌ من أبناء بلادنا ابتعدوا عن مراكز دينهم القويم.

وأفظعُ غاية يسعى عدوُّنا اللدود إلى إنجازها زعزعةٌ فيما بيننا، وفوضى تحكم معاشَنا وحياتنا، وقسوةٌ من بعضنا تجاه بعضنا، فقد أبى الغادرُ إلا أن يعتاش على فُرقتنا وتفرقنا وضياعنا وتيهنا، فهل نحن مستوعبون؟!

أم إننا عن مخططاته غافلون؟!

استيقظوا وقولوا:

اللهم ردَّ كيد العدو في نحره وألِّف بين قلوبنا، واحفظ علينا بلادَنا وأمِّنا وآمِّنا في أوطاننا وهيئ لنا ولحكامنا ولشعوبنا مِنْ أمرنا وأمرهم رَشَداً.

الوحدةَ الوحدة
قبل فوات الأوان وتلقّي اللعنة

«وهيهات أن يلقانا رسول الله ﷺ مسروراً منَّا وبنا ونحن ندمِّر أواصر اللقاء على الإسلام والإيمان بقذائف السياسات العفنة المؤذية».

ألم يأنِ لنا أن نعود إلى فرائضَ هامة لنُعيد النظرَ في حكمها، وفي إمكانية تنفيذها وتطبيقها ؟!

ولعل أهم هذه الفرائض «الوحدة» المستوحاة من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ آل عمران: ١٠٣.

ومن قوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوةٌ ﴾ الحجرات: ١٠.

ومن قوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقوى ﴾ المائدة: ٢.

ومن قوله: ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم ﴾ الأنفال: ٤٦.

فهل من مُدَّكر واعٍ ؟!

لقد وقعنا في فخِّ الفرقة والتشتت أزماناً وأزماناً، فما حصدنا إلا الدماءَ التي سحَّت منَّا علينا فأعمتْ عيوناً لدينا، وغلَّفت قلوباً في صدورنا، وها نحن سادرون في غيٍّ وهمِ تمحيصِ معتقداتنا، التي نريد لها في النهاية تفريقاً لصفوفنا وتمزيقاً لجَمعنا !

وهذا يعني أننا حملنا المعتقدَ سيفاً يقطع صِلاتنا ببعضنا،

ويُبعد الأخَ بتبرير القرآن عن أخيه، فيا ويح ذيَّاك المعتقد ويا بؤسَه، فإنه إن كان كذلك فليس - وربِّ الكعبة - بمعتَقد، ولا يصحُّ أن يكون منسوباً إلى الخالق الحكيم الرحيم، ليكون واجباً نظرياً مفروضاً على عقولنا وأفئدتنا.

بئست المعتقدات المفرِّقة لمن جمعهم الإيمان بالله ربَّاً وبالقرآن كتاباً وبالإسلام ديناً و بمحمَّد ﷺ نبياً ورسولاً!

وخسئت اعتقاداتٌ تدفع من ضواهم القرآن تحت رايته وقنطرته إلى إسالة دماء بعضهم حقداً وغلاً وشحناء وبغضاً!

لسنا في مقولتنا هذه بملقِّنين، ولكننا ذوو تأصيل قرآني ونبوي، فلا والله لا يرضى القرآن أن تكون «الشيعية» عنصر نفرة قلبية وفكرية وعقلية عند السُّنيِّ!

ولا يقبل كتابُ ربِّنا أن تكون «السُّنية» حجرَ عثرة في إقامة فريضة الأخوَّة مع من يتصف بها!

وهيهات أن يلقانا رسول الله ﷺ مسروراً منَّا وبنا ونحن ندمِّر أواصر اللقاء على الإسلام والإيمان بقذائف السياسات العفنة المؤذية التي نسجتها أيادٍ غادرةٌ آثمة، لم يَرُق لذويها دينٌ يتماسك أفراده كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسهر والحمَّى!

في النهاية...

هما خياران:

- فإما إعلان البراءة جهاراً من السُّنَّة يتولاها الشيعة، أو من

الشيعة يتولاها السُّنَّة، ومفاصلةٌ على أساسٍ من التغاير المطلق المؤدي إلى مقاتلة وجهاد !

- وإما رأب الصدع، ولمُّ الشمل، وجمع الصفِّ، على أسس من آيات قرآنية قطعية محكمة، وأحاديث نبوية صحيحة ثابتة.

ولنسرع في اتخاذ واحد منهما، فما عاد الوضع يتحمل تمديداً أكثر مما هو عليه، وما عادت الأجيال تتقبل انتظارَ الحسم زيادةً على ما مرَّ عليها.

وكفانا تقلُّباً ولعباً على أكثر من حبل، فقد تحولنا أمام ناظرينا إلى سحرة لا يتقنون فنَّ السحر، ومهرِّجين لا يستحقون ضحكة خفيفة !

ورحم الله إقبال حين قال:

فإلى متى صمتي كأنني زهرة
خرساء لم ترزق براعةَ منشد
قيثارتي ملئت بأنَّات الجوى
لا بدَّ للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتي خواطرُ مهجتي
ليَبين عنها منطقي ولساني
أنا ما تعدَّيتُ القناعةَ والرضا
لكنَّما هي قصة الأشجان

دمعة من أجل الوطن

يا وطني يا أيُّها الوطن العربي:

هل أنت وهم أم حقيقة ؟ هل أنت ماء أم سراب ؟ هل أنت شيء أم هباء ؟

حِرتُ يا وطني في وصفك بل توصيفك، وما دفعني إلى هذه التساؤلات إلا واقعك، فكلام أبنائك عريض وفضفاض، ولكن الفعل ضيق، ويمكن أن نطلق عليه: متلاشٍ.

يا وطني ما الذي خرّبك ؟ ولم أنت مهان ؟!

ألأنك عربي ؟ والعروبة - في ظني المتقارب من اليقين - شهامةٌ ومروءة وحضارة ومساهمة في بناء الإنسان.

أم لأنك مسلم ؟! والإسلام - على حد علمي - دينُ علمٍ ووعي وأمان وإبداع.

خبِّرني يا وطني عن السبب قبل أن يفوت الأوان فيهجرك كل أبنائك، ولا تتركني في حيرة، فلقد ضاقت بنا - نحن الذين نسعى إلى رفعتك - السُّبل، وخلِتَنا كالمتسكعين والمتسولين على أبواب العالم الآخر أو العوالم الأخرى، فما من عالم سواك رأيناه إلا وجدناه أفضلَ منك دنيا وديناً، فآلمنا ذلك وجرَحنا هذا الذي رأينا.

يا وطني، أيها العالم العربي:

ألم يأنِ لك أن تتحد ولو بالقوة ؟ أعني قوة أعدائك التي يجب أن تحضّك على هذا.

يا وطني العربي:

أجيالُنا القادمة تفكر بانتسابٍ إلى سواك، فها هم يهاجرون، وبقدراتهم وعقولهم يخدمون غيرك، لأن غيرك يخدمهم ويُشبعهم ويشعرهم بوجودهم.

يا وطني:

ما فنُّك الذي تزعم سَبْقاً فيه بفنٍ ! ولا رياضتك التي تدّعي تقدماً فيها برياضة ! ولا دينك الذي تفرز من أجله جماعات وجماعات ومجاهدين ومجاهدين بدين !

خبِّرني عن شيء هو فيك ناجع نافع... نبِّئني عن نقطة حسنة لنعمل على تطويرها وزيادة تحسينها... قل لي يا وطني فقد ضاق الحبل على الودج !

واسمح لي أن أقول لك وأنت ممثَّل بأبنائك:

ادَّعِ الذي تريد، وازعم ما تشاء، فلستَ على شيء حتى تُقيم هذا الذي تقوله على أرض العمل والحقيقة الفعلية، وإلا فلا وربِّك لا تنال الذي تودُّ نَيلَه حتى تتلمذ على كل العوالم الأخرى تلمذةً صادقة، وتكفَّ عن الثرثرة والتهريج والظلم والكذب والخداع والمكر والأنانية كفاً صحيحاً، وعندها فالله معك !

أحلام متكسرة

طال النوم وطالت الأحلام، وبعدت عنا شُقة اليقظة، وغدونا في أعراف الناس عامةً مشتهرين بالحالمين، وجاءت أغنية «الحلم العربي» أخيراً لتجعل الفنَّ وأهله مع النائمين، أو بالأحرى: لتضيف إلى النائمين الحالمين صنفاً جديداً، وباعترافه.

والسؤال الذي نود طرحَه هو:

إلى متى سنظل بالحلم معروفين، وعن اليقظة غافلين ؟!

لقد أكثرنا من ذكر التاريخ ومن غير توثيق، فكلام النائم ساقط الاعتبار، وأغفلنا الحاضر وأهملناه، وحَسبناه - جهلاً منَّا - ينتعش بنسيم أحلام الماضي، أو بوابلٍ متخيَّل منه.

وجاء من يؤكِّد لنا هذا، فلا نفيق ولا تفيقوا، وإذا أفقنا فليت أنَّا لا نفيق، لأننا نتوهم الإفاقة ولا إفاقة، وهل مجرد القدرة على تسفيه الآخر ونبذه واتهامه وتكفيره يعني الإفاقة ؟! وهذا ما يصدر عنا، وباستعراض معادلات القول والفعل الصادرة من جهاتنا اللسانية والحركية ندرك حقيقة ما أسلفناه.

ولو أننا أخذنا مقطعاً من مسار قولنا، وآخرَ من سلسلة أفعالنا، وحللناهما، لوجدنا فيما يخص القول:

مفردات الماضي هي الحاكمة، والمقطع قد ملئ بـ «لقد اخترعنا»،

و «اكتشفنا»، و «كان فلان»، و «انتصر فلان»، و «خذلْنا فلاناً»، و«سبقنا فلاناً»، ... إلخ.

وأمَّا ما يخصُّ الفعل فمقطعه بعد التحليل:

«مفارقة عن القول وابتعاد عنه»، و«مثاقلة إلى الأرض»، و «قهر يمارسه بعضنا على بعض»، و«عنف يوجِّهه أفرادٌ من بني جلدتنا ضد آخرين من ذات الجلدة»، و «تبعية صمَّاء عمياء للآخرين»، و «انشغال بالعجز والكسل عن النشاط والعمل»، و «صناعة مفقودة»، و «زراعة كسولة»، و «سياسة مجهولة»، و «اقتصاد مشلول»، و«اجتماع تنهض به أسس»، و...

يا قوم:

لماذا تشرئب أعناقنا تقديراً لمن يصرُّ على بقائنا حالمين بكلمات مدح جوفاء، أو بامتداح تاريخنا المنفصل عنا ؟

بل لماذا نرفض الموقظين ؟

بل لماذا لا زلنا نُستهوى بمن يُصدِّقنا، ونُبعد الذي يَصْدُقنا ؟!

ولا أقصد بذلك فئةً من عالمنا دون فئة، ولا طائفة بعينها، ولا شريحةً محددة، بل «الحالمية» حلَّت علينا داءً يأتينا في الظلام والنهار، وما هي كـ «حمَّى المتنبي» التي تزور في الظلام فحسب، ولفّتْ كلَّنا في مختلف صعدنا ووجودنا، فما منَّا أحد خارج سربها، أو بعيداً عن مجالها المغناطيسي.

حرامٌ أن نزهق طاقة أحلامنا فيما لا طائل تحته، بل فيما يعود علينا بالضرر !

وحرامٌ أن نكون أسياداً في الأحلام التي لا تتجاوزنا !

وحرام أن نكسِّر الأحلام على بعضها بمضامين الوهم !

وحرام أن لا يكون لنا قدمُ صدق في ساح اليقظة !

وكلُّ الحرام أن نكتفي بالتاريخ نصيغه شعراً غاوياً عذباً كاذباً، ونترك الحاضر لمن يصيغه استعلاءً واقتداراً، فيثبت قدمَه فيه، ويسعى لتثبيت قدمه الأخرى في الزمن الثالث الذي هو المستقبل.

واحُزنَاهُ على أحلامنا التي استُعملت حتى الاهتراء، ورُفعت على شكل رايات، فتُوولت بالقذف حتى انكسرت.

ما ثمة من قول سوى:

فهُبوا يا بني قومي إلى العلياء والعلمِ

وأقول:

ما لي أراكم نياماً في بلهنية

وقد ترَون شهابَ الحرب قد سطعا

وفي النهاية

أيُّها العرب.

أيُّها المسلمون.

وأنت يا سورية خاصَّة:

هيا جميعاً إلى تشكيل أنموذج يُحتذى فيما يخصُّ وحدةَ الشعب والقيادة، واجتماعَ الكلمة وتراصَّ الصفوف، ولقاء الإنسان مع الإنسان تحت قبَّة الإسلام الأوسع والعروبة الأرفع، وأرُوا الناسَ جميعاً حُسنَ ارتباطكم بربكم، وكذلك بالإنسان عامة، وبالأرض وبالوطن.

وردِّدوا بالقول وبالفعل:

الحضارة حضورٌ بعطاء نافع، وما كانت الحضارة في يوم من الأيام قهراً ولا مادة صرفة.

اذكروا بينكم وبين أنفسكم طبيعة رسالتكم وحقيقتها، ولا تنازعوا فتفشلوا، لأنَّ طبيعةَ رسالتكم اعتصامُ جميعكم مع جميعكم بحبل الله المتين، وهو القرآن العظيم الذي جاء للإنسان هدىً ورحمةً وبناءً وعطاءً ورفعةً ومكانةً.

ربَّنا هَيِّئ لنا وللإنسانية كافَّة مِنْ أمرنا رَشَداً.

والسَّلام عليكم.

فهرس الكتاب

سعياً إلى:

بناء الإنسـان * وخدمة الأوطان * وإرضاء الديان

يتابع الدكتور الشيخ

محمود عكام

مفتي حلب

أعماله بالكلمة المسموعة والمكتوبة،

وعبر المسجد والجامعة ووسائل الإعلام المختلفة

ومن خلال الكتب والخطب والمحاضرات

واللقاءات الصحفية والفتاوى ...

كلُّ ذلك وغيره من نشاطات، تجدون رصداً وافياً له،

وتشاركون في الحوار حول الأفكار المطروحة فيه

من خلال الموقع على الشبكة العالمية «الإنترنيت»

www.akkam.org

موقع لقضايا الإنسان ومسائل الفكر الإسلامي

التطرف والاعتدال

كلمات رشيدة، بل صرخات منذرة، يرسلها حكيمٌ قد أبصر عارضَ سوء يريد أن يمطر أمّته فنادى:

إنه لا يقوم بهذا الدين إلا من حاطه من كل جوانبه.

وأعظم عنوان يحيط بالإسلام ((رحمة))، تقوم على عدل وإحسان وإيتاء.

فأين إسلام اليوم، المرهون إلى المسلمين، من هذه العناوين ؟

وما بال سيماه قد ارتبطت في أذهان العا
بقَتَرة الحرب والعنف والإرهاب؟!

فأنصتوا يا بني قومي إلى الناصح الأ
ولا يستخفنكم الغالون.

الناشر

